

روايات الملال

حلم فتاة

قصص من اليونان الحديثة



روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٥٨ - أكتوبر ١٩٧٨ - ذو القعدة ١٣٩٨

No. 358 — October 1978

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد
نائب رئيس مجلس الإدارة : صبرى أبوالمجد

رئيس التحرير : الدكتور حسين مؤنس
سكرتير التحرير : موسى عبيد

بيانات ادارية

عن العدد : في جمهورية مصر العربية ١٥٠ مليماً ، عن الكميات المرسلة : الطائرة - في سوريا ولبنان ٢٠٠ قرشاً ، في الأردن ٢٠٠ فلساً ، في العراق ٣٠٠ فلساً - في الكويت ٣٠٠ فلساً - في السعودية ٣٥ ريال سعودي
قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عدداً » في جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والاfrican ١٥٠ قرشاً صاعاً - في سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢٥٠ جك والقيمة تستمد مقعماً لقسم الاشتراكات بدار الهلال : في جمهورية مصر العربية والسودان بحواله بريعية . وفي الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية . والاستعمار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب .

الافتحة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بالقاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »



اهداءات ٢٠٠٢

أسرة الدكتور/ ماهر مهران

القاهرة

روايات
الهلل

IOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الاسكندرية

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الملك إبراهيم
الملك سعيد

حلم فتاة

قصص من
اليونان الحديثة

تقديم

بعض الكتاب
اليونانيين المعاصرين

ترجمة

د. نعيم عطية



دار الهلال

أهداء

الى ذكرى الدكتور طه حسين

أكثرنا حبا للادب اليونانى

ن . ع

مقدمه بقلم المترجم

الأدب اليونانى ليس التراث الاغريقى فحسب

حظيت أعمال أدبية لكثير من القصاصيين والروائيين والشعراء اليونانيين المعاصرين بالترجمة لا الى الانجليزية والفرنسية فحسب بل وإلى الألمانية والإيطالية والبلغارية وغيرها من اللغات أيضا .. وقد ترجمت رواية « الخطأ » للقصاص اليونانى المعاصر اندونى ساماراكى الى خمس عشرة لغة .. منها اللغة اليابانية وصدرت الترجمة التى أجراها أحد أساتذة جامعة طوكيو فى طبعة انيقة من إحدى دور النشر بطوكيو . وتعتبر أعمال اندونى ساماراكى من أكثر الأعمال الأدبية رواجاً . وطبعت مجموعته القصصية « مطلوب أمل » طبعة خامسة من ٢٥ ألف نسخة . ويمكننا أن نعرف من هذا العدد مبلغ أقبال اليونانيين على قراءة الأعمال الأدبية . وقد كتب النقاد عن اندونى ساماراكى بمختلف اللغات . فكتب عنه ماكس تاو بالألمانية قائلاً : « اننى أومن بساماراكى ، وأعرف انه بعمله يستطيع أن يعطى العالم الأمل الكبير ، فى أن يحيا الناس وقد سادهم الفهم والأخوة » . وفى كويتهاجن كتب عنه جاكوب بالودان : « كاتب فذ . من المتعذر أن تقرأ أعماله دون أن تحس بشجن حقيقى » . وكتب ادوين جاهيل الأستاذ بجامعة النوى : « ساماراكى واحد من أكبر كتاب العالم . صوّت من اليونان يتحدث الى الإنسانية بأسلوب عصرى مدرك لمسئلياته ، يتحدث عن التناقضات والقلق ، ويدين الوحشية والحرب والعنف والفقر والحرمان من الحرية » . أما أحدث أعمال ساماراكى فهى روايته « الخطأ » التى كان لها وقع كبير فى مختلف الأوساط الأدبية فى اليونان وخارجها ، فحصلت فى اليونان على جائزة الاثنى عشرناقداً ، وهى توازى « جائزة جوتكور » فى فرنسا . وعندما ترجمت رواية « الخطأ » الى الفرنسية ونشرتها دار النشر « ستوك » عام ١٩٧٠ نالت جائزة احسن رواية اجنبية مترجمة . وقد كتب عنها الروائى الكبير جراهام جرين : « أنها تحفة أدبية حقا ، كتبت بقلم متوقد

وصنعة فريدة» وتحكى الرواية أحداث يومين في حياة فرد عادي اشتبه البوليس في أمره فألقى القبض عليه . ومضى رجال السلطة يحاولون انتزاع اعترافه أو ادانتته من واقع أفعاله وسلوكه ، وبعد أن تمضى الرواية في هذا الاتجاه يحدث ما يغير مجراها ، ثمة « خطأ » اكتشف . انه عمل بتعدى أبعاد الرواية البوليسية ويقودنا بمنهج شديد الذكاء الى الحدود غير الآمنة بين الوهم والحقيقة . ويجرى الآن أعداد هذه الرواية فيلما سينمائيا فرنسيا . وليست هذه المرة الأولى التى تتحول فيها أعمال أندونى ساماراكى الى أفلام سينمائية ، فقد قدمت السينما اليونانية لبعض قصصه « النهر » فى عمل سينمائى ناجح .

وإذا كنا قد وقفنا مليا أمام أعمال أندونى ساماراكى فقد قصدنا من ذلك أن نشير الى الصلاحيات التى تنطوى عليها الحياة الأدبية اليونانية المعاصرة ، وانفتاحها على المستوى الأوروبى والعالمى . ولاشك أن الترجمة من اليونانية الى مختلف اللغات الأخرى تؤدى دورها الفعال وتبرز إمكانات تلقى الأدب المعاصر فى الخارج ، أن اليونان ليست فحسب ذلك التراث الأغريقى الذى مضى عليه ما يقرب من ألفى عام بل أن اليونان هى أيضا أعمال الفن والأدب التى تنتجها قرائح أدباء اليونان وفنانيها اليوم . وقد أخذ الأدب اليونانى المعاصر يعرف طريقه الى العديد من جامعات أوروبا وأمريكا ومعاهدها المتخصصة . وتزداد هذه اقبالا على دراسة الأدب اليونانى المعاصر وترجمته الى اللغات المختلفة .

وبجدر أن نشير الى أن القارئ اليونانى بفضل حركة الترجمة النشطة الى اليونانية يعرف الكثير من أعمال الأدب العالمى ، بل والملاحظ جيدا أن دور النشر اليونانية باتفاقات خاصة مع الناشرين فى العواصم الأوروبية تترجم الكثير من الأعمال الأدبية الأجنبية فور صدورهم بلغاتها الأصلية . والقارئ اليونانى مشوق الى التعرف على الأدب المصرى المعاصر الذى لا يعرف عنه الكثير ، وذلك على الرغم من احساس اليونانيين بأنه كان بإمكانهم وقد عاشوا طويلا فى مصر الحديثة أن يكونوا أكثر التفاهتا الى أدب بلادنا . والكتاب اليونانى بصفة عامة يتصف باتاقته وحسن طباعته ، وهو فى اغلب الأحيان ليس بالزهيد فى سعره ، فالفكرة السائدة فى أوساط الكتاب والناشرين أن الكتاب الأدبى سلعة يجب أن يحقق لمؤلفه وناشره دخلا مناسبا ، وأن الاقبال على شراء الكتاب

انما يأتي بعد أن يتضمن القارئ لنفسه حاجات الحياة ومطالبها ولهذا فإن مشتري الكتاب اليوناني عادة يكون من المقتدرين ، وأن كان تزايد نسبة توزيع الكتاب اليوناني يشير إلى التحسن المطرد في المستوى الاقتصادي للمجتمع اليوناني بصفة عامة .

وما دمنا بصدد الحديث عن الكتاب اليوناني فجدبر أن ننوه بسلسلتين منتظميتين تنشران الأدب اليوناني المعاصر ، أما السلسلة الأولى فهي بعنوان « الأعمال المنتقاة من الأدب اليوناني الحديث » وتصدرها دار النشر التي تصدر عنها مجلة « نياستيا » وتقرأ في قائمتها أعمالا لتيوتوكا وباباندونيوس وكاركافيتسا وميروفيليس وبريفيلاكيس وكارجاتزي ، وبيتسالي ذوميسلي وآخرين ، أما السلسلة الثانية فهي التي تصدرها في طبعات رخيصة دار النشر غلاكسيا بعنوان « مكتبة الكتاب اليونانيين والأجانب » ذات الغلاف الأزرق .

ولما كان اليونانيون قد عرف عنهم انتشارهم في بقاع العالم فإن كثيرا من الأعمال الأدبية التي ينشرونها تحتوي على خبرات وأحاسيس مختلفة تنضج بارتباطات باقية بالبلدان والشعوب التي عاشوا على أرضها . وقد طالعنا مجلة « نياستيا » نصف الشهرية بأحد أعدادها الأخيرة بقصيدة لشاعرة عاشت في مصر وحملت إلى اليونان حبا عارما لمصر وأهلها . هذه الشاعرة هي كيتي باباذاكي - كارميتسا وتقول في قصيدتها بعنوان « ساعة الصلاة » :

« يتأهب حسن ومحمد وسليم للصلاة ، غسلوا الأقدام وبسطوا على الأرض ثوبا رخيصا نظيفا . منكس الرأس خاشعين ركعوا متجهين بوجوههم نحو المشرق . خفيض النظرات ، تتمم الشفاه بآيات من القرآن ، كلمات حكيمة . وفي الغرفة مغلقة النوافذ تخلع نجية ملأتها السوداء ، وتضع على الرأس طرحة بيضاء . تميل الشمس للغروب . تمهلت لحظة تمتع السمع بصوت مؤذن الجامع المديد يقول : « لا اله الا الله » والنيل يصفى بانتباه . وقد سكن سعف النخيل . الكل يطلب الصمت . في الدروب الضيقة الفقيرة يكف الضجيج ، وفي الأحياء الفنية أيضا يبطل الصخب يرتفع النداء « لا اله الا الله » والقاهرة بأسرها تحتضن صوت المؤذن الحبيب . وصل الصوت إلى قلبي المؤمن . وتمتعت شفتاي مع حسن ومحمد وسليم : « لا اله الا الله » الله واحد بالنسبة لنا . . . كلنا على هذه الأرض . كلنا سواء . »

ولقد سعت التيارات الأدبية في اليونان - على الأخص في مجال
القصة والرواية - إلى الاستفادة بالتجارب المعاصرة ، سواء في الشكل
أو المضمون . فقدم كتاب اليونان انتاجهم القومي في قالب عصري ،
ويفخر الأدباء اليونانيون بأنهم يشرون بعطائهم الأدبي الأوربي ،
ويرفضون التقيد بالحمية ، ومن ثم تخلصوا من الحذلقات والزخارف
اللفظية مقربين لغتهم الأدبية من لغة كل يوم . وقد أخذت شخصية
الأديب اليوناني تتضح بجلالة فقد طوع أسلوبه بحيث لم يصد
يكتفى بأن يقدم لقارئه لوحات « شعبية » فحسب ، بل استخدم
لغته للتعبير عن رأيه الذاتية من خلال اختيار موضوعاته
وتفسيراته للمواقف والأبطال . كما أن ثمة تيارا جديدا بدأ يغزو
القصة اليونانية الحديثة نجده على الأخص لدى جورج تيوتوكا .
وذراسوس كاستاناكيس وكاراجاتسيس ، وهو تيار الكتابات
اللامحلية عن أحداث تدور في بقاع أخرى من العالم غير اليونان ،
أو بين شخوص من جنسيات أخرى ، وقد جعل بانايوتوبولوس
العديد من أبطاله في قصص مجموعته الأخيرة «فلامينجو» الصادرة
عام ١٩٦٣ من الأفريقيين السود يصارعون من أجل التحرر من
أغلال العبودية ، وقد ساعدت هذه اللامحلية على تجديد الأطوار
الخارجي للموضوع وعلى تسهيل المعالجة السيكلوجية إلى مستويات
أخرى غير تقليدية .

ولئن تعددت القصص اليونانية التي تلت الحرب وتنوعت ، فإنه
يجمع بينها محاولة ربط القومي بالعالمي ، وإعلاء النظرة الديناميكية
إلى الوجود الإنساني على النظرة الاستاتيكية . وأخيرا نجد الكتاب
اليونانيين الجدد ، سواء واجهوا الفرد أو واجهوا الجماعة ، يصلون
في أعمالهم إلى مشكلات تتمدى الوسط اليوناني ، وتقتضي حلولها
التقصي من مدلول أشمل للإنسان ، وبذلك يساهم الأدب اليوناني
الحديث في إثراء التجربة الإنسانية العالمية .

وأخيرا ، فقد توخينا في هذه المجموعة القصصية الجديدة التي
تقدمها للقارئ أن تتنوع مادتها وتعدد جوانبها ، مما نرجو معه
أن تدخل طلاوتها السرور إلى قلب القارئ فيشعر بالتمتع التي
يحققها الأدب الرفيع بأي لغة من لغات البشر .

د . نعيم عظمة

النورس

إيليا فينيزي



التورس

الجزيرة الصغيرة في شمال « ليزفو » الواقعة بين « بيترا » و « موليفو » جرداء ومهجورة . ليس لها اسم ، والصيادون الذين يعملون في مياه تلك النواحي يطلقون عليها « الجزيرة » فحسب دون أدنى إضافة . وباستثناء شجيرات الحبسك والشوك التي تغطي أديمها ليس بالجزيرة شجرة واحدة . تلوح على بعد ثلاثة أميال جبال « ليزفو » وادعة متألفة الخطوط والألوان والحركة . وبأزاء تلك الوفرة التي تكتسى بها الأرض المقابلة تبدو الجزيرة العارية بخطوطها الصارمة أكثر عزلة ووحشة .

ولكن من جزاة الأرض المستطيلة هذه ، بإمكانك في الصيف أن ترى الشمس تسقط في رحاب اليم المترامي الأطراف . وعندئذ تصطبغ المياه بشتى الألوان ، وتمضي متغيرة في كل لحظة كما لو كانت تدوب في الأمواج الزاهية . وعندما تكون الأمسيات صحوه والسماء صافية ، يمكنك أن تميز جبال الآثور تبرز من البحر الرحيب ، على أنها لا تلبث أيضا أن تخبو مع الليل الذي يخطو قادما . في هذه الساعة ، سوف يأتي العم ديمتري فاطن الجزيرة المهجورة الوحيد - سوف يأتي بالحركة الأخيرة التي تربطه بالبشر والحياة ، سوف يوقد النور في الفئار . وسوف يبدأ هذا النور يضيء وينطفئ ، ثم يمضي يضيء وينطفئ في الفترات المتقطعة ذاتها بصرامة وحتمية ، مثل القوى الفاضة في الحياة ، مثل قدر الإنسان ، ومثل الموت . جذب حارس الفئار المجوز القارب على الرمال ، ووضع في مكان أمين ، فقد ينقلب الجو بالليل فتتمدد إليه المياه . ثم ألقى عليه نظرة أخيرة قبل أن يمضي في طريقه إلى الفئار . - إذن ، انتهت هذه الرحلة أيضا ..

قال ذلك بصوت خفيض .

قال ذلك لنفسه وسكت . هذه الرحلة إلى الشاطئ المقابل يقوم بها مرة كل شهر . يذهب إلى هناك من أجل مؤنته ، من أجل الدقيق والزيت ، ومن أجل سائر لوازمه . في أول الأمر ، كان في كل رحلة يقضي في القرية اليوم كله ، يتجاذب أطراف الحديث مع

أصدقاء قدامى ، يعرف أخبارا عن البلد ، وعن البشر ، يعرف ما إذا كان الناس في حرب أم في سلام .

كان صراف الجمارك يتقده مرتبه قائلا :

— كل شهر وانت طيب ، يا عم ديمتري .. !

كان العجوز يهز رأسه شاكرا . ويقول له :

— أراك بخير ، يا بني ، أن كان لنا عمر .

في الساعات الباقية الى أن يحين أو أن عودته الى « الجزيرة » كان يصعد الى كنيسة العذراء الصغيرة ، متسلقا درجاتها المائة المنحوتة من الصخر ، كي يؤدي صلاته . كان يشبك ذراعيه امام الأيقونة القديمة ، ويخفض رأسه ويصلي من أجل ولديه اللذين فقدوا في « تكة الأناضول » ، ومن أجل سائر البشر ، وأخيرا من أجل نفسه .

— لو كانا على قيد الحياة ، يا الهى ، احفظهما .

هكذا كان يستهل من أجل ولديه .

— احفظهما من ثورات الغضب ومن شرور الزلزال ، ومن الشجار

وحد السكين ..

ثم كان يتمم بالصلاة ، وبما كان يعرفه من تراثيل . وتذب

الرمشة في ساقيه الهرميتين .

كان يقول :

— أن أوانى كي أستريح بدورى .

وتغردق عيناه بالدموع .

سلك مرة ، كان يتزل الدرجات المائة ، وقد زاد قلبه ارتياحا .

في الشارع ، كان يقف ويتابع الأولاد وهى تلعب . جميعا يعرفونه

فاذا ما راوه صاحوا به :

— عم ديمتري ! عم ديمتري !

كان يشتري لهم بندقا ويوزعه عليهم ، فيهللون فرحين :

— لا تتأخر في العودة إلينا ، أبنا الجد العزيز ! لا تتأخر !

هذا ما كان يحدث في كل رحلة . كل مرة . ولكن كلما ولت

السنوات قلت ألفته بالناس . وازدادت العزلة استحوذا عليه

يوما بعد يوم . كانت تمتصه ، كما لو كانت تقطر في كيسانه

سقوطها المخيفة . مضى في كل رحلة يقلل قدر امكانه من الوقت

الواجب قضاؤه في القرية من أجل أعماله .

ثم كف أيضا عن الصعود الى كنيسة الصخرة .

— سامحنى لآتنى ما عدت أستطيع .
هكذا كان يخاطب الرب . ثم يردف قائلا :
— إنما كنت أستطيع أن أصلى اليك ، لترى مبلغ ضعفى .
وعندما يعود الى جزيرته بعد كل رحلة ، يظل ردحا طويلا من
الليل يصلى .

ما عاد يسأل عن اخبار ، ما عاد يسأل عما يجرى فى الدنيا . لم
بعد يعرف عن ذلك شيئا . مع فوات النهار ينحسر العالم من حول
الجزيرة المهجورة ، وتنغلق على نفسها ومن حولها البحر العميق ،
تتراقص على صنفحته الألوان والشمس فى طريقها الى المغرب .
آخر الصحاب الذين تبادل معهم الحديث ، كانوا بعضا من
النصيادين الذين يرسون بالجزيرة مليا ، وقد وجدوا لديهم من الوقت
فسحة ليحطوا بها الترحال . كانوا يبقون على الشط حيث تخذ
حركة الموج ، ويتحدثون عن شقائهم وقدرهم . فى كثير من الاحيان
يمضون الليل هناك . وعندئذ ، فى الساعات الطوال الى أن تشرق
الشمس ، كانت تفرغ احاديث الآخرين فتجىء الساعة المهيبة
ليتحدث بدوره عن ولديه أيضا .
كان الصيادون يقولون له :

— من يدري ؟ ربما كانا على قيد الحياة ، ويجئان ، ياعم
ديمتري ، هكذا مثل نورسيك اللذين عادا اليك .
لم يكن ينطق بكلمة ، لم تكن تصدر عنه نامة . عيناه الساكنتان
مشتتان على اعماق الليل .
— أجل ، ياعم ديمتري ، مثل نورسيك . هكذا يمكن ان يعودا ،
ويأتيا . لا تياس .

وعندئذ كان الصيادون ، يذكرون — بهذه المناسبة — نورسى عم
ديمتري . يقولون له :
— حقا ، كيف أمكنك أن تستأنسهما ، ياعم ديمتري . لم يسمع
قط بان طيور النورس تستأنس ...
ويتمتع العجوز قائلا :

— هذا ما يحدث ، يا ابتائى . الوداعة تسود ، هنا ، على
الأرض ، تسود كل شيء ، عدا الإنسان الذى يظل ضاريا .
كانوا يسألونه ان يحكى لهم مرة أخرى حكاية الطائرين ، على
الرغم من انهم كانوا يعرفونها كما يعرفها كل قاطنى اليابسة
المواجهة . وجدتهما صغيرين بين الصخور ، فرخين لم يقط الريش .

جسميهما بعد . كان الوقت شتاء آنذاك . أشفق عليهما ، وحملهما
إلى كوخه بالقرب من الفئار . احتفظ بهما ورباهما ، مظلما إياهما
صغار السمك الذى يعلق بشبكته . ذات يوم ، خطر له أن يطلق
كل منهما اسما .

— ايه ، أنت ، سنناديك ...

فى ذكرياته ، فى قلبه ، تلك الساعة المفعمة بالسكينة ، حوم وجها
الطفلين عندما كان يناديهما وهما جد صغيرين :

قال لأحد الطائرين :

— اذن ، أنت ، سنناديك فاسيلكى . وأنت أيها الآخر سنسميك

أرغيرى ...

وهكذا بدأ يناديهما منذ ذلك الحين باسمى ولديه . ورويدا رويدا
الف النورسان هذين الاسمين .

عندما كبرا ، وجاء الربيع ، فكر المعجوز ذات صباح انه ليس
من الجائز أن يبقى الطائرين فى الأسر . وقرر أن يطلق سراحهما .
فتح القفص الكبير المصنوع من القاب ، وأمسك بأحد الطائرين .
أمسك به بين يديه ، وربت عليه . أحس بقلبه خفيفا .

قال للطائر :

— هيا ، اذن يا فاسيلكى ،

وفتح يديه كى يتركه يطير .

طار النورس ورحل .

أخرج الآخر أيضا . لطفه مثلما لطف الأول . وتركه بدوره .
كان كل شيء ودئما ذلك النهار ، وكذلك الليل عندما أقبل كان
حانيا ودعما . كل ما هناك ، أحس المعجوز انه ازداد وحشة وعزلة .
تلك الليلة ذاتها ، أوى إلى كوخه مبكرا ، فسمع على شسبائه
الصغير دقات خفيفة . دنا منه وألقى نظرة . لم يصدق . طار
من شدة الفرح كما لو كان ابنه قد رجعا .

فتح الباب ليدخل النورسان .

ومن ذلك الحين ، يحدث هذا كل يوم . يخرج الطائران فى
الصباح . يسافران إلى بابسة الأناضول المقابلة ، يلبغان «زيفرى»
يرفرغان عليها بأجنحتهما ، وبالليل يعودان . فى مرات عديدة كانا
ينضممان إلى أسراب من نوارس أخرى . وتطير جميعا فى سماء
الجزيرة المهجورة . فإذا طارت على ارتفاع خفيض ، أمكن للمعجوز
أن يميزهما بفضل ما كان لهما من نقط رمادية تحت الجناحين .

واذا ماخرج بقاربه كان الطائران بدورهما يحومان هناك قريبا منه .
يهبطان من ارتفاعهما ويوقزان فوقه . ثمَّان الصيادون الآخرون في
تلك النواحي قد عرفوهما أيضا . فاذا راوهما صاحوا ضاحكين :
- هيه ، يا فاسيلي ، هيه ، يا ارغيري ! ..
هكذا مضت الأيام في الجزيرة الموحشة . يتوالى الامس واليوم
والغد ، على ذات الوتيرة . سلسلة من الأيام الهامدة ، انهر وليال
ليس فيها ما ينتظر سوى الموت .



ذات امسية من امسيات الصيف حدث امر غير مألوف . لم يعد
النورسان ، ولا ظهرا في اليوم التالي . انقضت الليلة أيضا دون أن
يبدو لهما أثر .

- ربما سافرا بعيدا .

هكذا فكر المجوز متحايلا على قلقه .

وفي صبيحة اليوم التالي جلس - كما اعتاد أن يفعل - على
رصيف الفئار . نظر الى البحر الرحيب . في لحظة ، خيل اليه
أن آدم اليم تماوج ، على مبعدة ميل أو زهاء ، كما لو كان ثمة
دلافين تمر وتلعب . مرات كثيرة ، رأى على بعد في البحر الفسيح
الدلافين تمر . تابعها وهي تخط حركاتها المتكاسلة خارج الماء ،
ثم تعود وتطفس في اللجة .

قال :

- دلافين هي ، هذه المرة أيضا .

ولكن بعد هنيئة رأى انها لم تكن كذلك .

قال مجفلا :

- انهم بشر .

نزل الى الشاطئ ، وراح ينتظر . بعد قليل تبين انهما ولد
وبنت ، يسبحان جنبا الى جنب ، بحركات بطيئة وانقصة . ومن
ورائهما الأمواج الصغيرة تطمس الأخاديد التي يشقها في الماء جسديهما .
عاد يفكر قائلا :

- ترى ، ماذا يزيدان ؟

لا يذكر أن جاء الى هنا احد من قبل لممارسة السباحة . فضلا
عن أنه لا يبدو من حولهما أى قارب يمكن أن يكونا قد قفرا منه .
بعد قليل ، وصلا .

اندفع الجسمان المبللان من البحر الى الشاطئ .

نظر الفتى الى عيني الفتاة ، ومد ذراعيه عاليا .
قال وهو يستنشق الهواء بقوة :
- آه ! كم كان الأمر جميلا .
انت الفتاة بذراعيها ذات الحركة ، ولكنها اكثر بطئا ثم قالت مؤكدة :
- كم كان الأمر جميلا حقا !
بعد ذلك ، جريا نحو حارس الفناء .
قال الفتى :
- انت عم ديمتري حارس الفناء ؟
وقف المعجوز مطرق الرأس ، وقد امتلا خشوعا امام جسد الفتاة
المارى . يلمع في ضوء الشمس الحارقة .
اجاب مرتبكا :
- انى انا . هل اصابكما مكروه ؟
سبارع الفتى قائلا :
- آه ، كلا ! قررنا امس ان نقوم بهذه الرحلة ، انا وصديقتى ،
وها نحن قد جئنا .
سال المعجوز دهشا :
- من اين ؟
- من الشاطئ المقابل . من « بيترا » .
لا يعرف المعجوز ديمتري ماذا يقول . يتمتم فحسب بانه لا يذكر
ان احدا جاء اليه من قبل ، في رحلة مثل هذه .
سأله الفتاة :
- هل ذهبت الى ايننا ذات مرة ، يا جداه ؟
قال : كلا ، ولا مرة .
- هل تمنى ان تذهب اليها ؟
بصوت خفيض ، يكاد لا يسمع ، قال :
- كلا ، يا بني . فات الاوان الآن .
- لا بد انك فى غاية العزلة هنا ، يا جداه .
- انى فى غاية العزلة ، يا بني .
صمتوا . مضى بعض الوقت . عاليا من سرب من النورس .
ينهب المعجوز ، ويدخل الى الكوخ ليحضر لهما قليلا من الرطب .
من الشباك الصغير بإمكانه أن يرى الولدين وهما مستلقيان على
وجهيهما وجسداهما لازالت ترتعش عليهما قطرات من ماء البحر .
لوحتهما الشمس بلا رحمة . انهما هناك مثل تمثالين من البرونز ،

فجرهما البحر ، من صنع الاله للصحة والاله للجسمال أيضا .
يتهدل شعر الفتاة الفاحم على كتفيها ، وفي حينها السوداوين
يتالق نور عميق . ينهض الفتى قليلا ، ويميل على هذا الوجه الذي
يغمره الضياء بالقداسة . يتطلع اليه منتشيا ، ثم يمد يديه ببطء
ويتحسسه ملاطفا .

لا يقول شيئا ، يتمتم باسمها مرتعد الشفتين فحسب :
- خرسولا ..

ترتفع العينان الواسعتان السوداوان ، وتظلان برهة قصيرة
ساكتتين ، مثبتتين على وجه الفتى . ثم تعقد الفتاة يديها خلف
راسه ، وتطبع على عنقه قبلة .

هكذا ، كل شيء ، هذه الساعة المباركة ، بسيط وديع في الجزيرة
الهجورة . وفي قلب الرجل المعجوز تسود الوداعة ذاتها . فاضت
مشاعره هذا الصباح من اصبحه الصيف ، وترقرقت . هذا
العتان غير المتوقع الذي جاء يزول وحشتم ، حرك المياه الزاكدة .
صاحت الفتاة من الخارج :

- جداه ، هل تأتى بدورنا الى الداخل ؟

يجيب مرتعدا :

- قادم انا . قادم انا .

أحضر لهما مربي لوز ، وماء بارد .

يتمتم قائلا كما لو كان يريد هما ان يسامحا :

- ليس عندي شيء آخر ...

تمسك به الفتاة من يده ، كى يجلس الى جوارها :

- اجلس ، اجلس ، يا جداه .

جلس ..

قال لهما وجلا :

- تعاليا غدا ايضا . بالليل ، ساصطاد لكما سمكا .

يجيب الفتاة بحزن :

- اننا نرجل غدا . يا للضارة اننا لم نحضر كل هذه الايام التي

كنا فيها هنا . هل انت في هذه الوحشة على الدوام ، يا جداه ؟

- على الدوام ، يا بنيتي .

يتمتم الفتى قائلا :

- آه ، الان فهمت ماذا كان معنى الطائران بالنسبة لك .

- اجل ، يا بنى . هذا هو الامر . انها العزلة .

ثم عاد الفتى يقول بعد قليل :
 ... يجدر بك أن تغفر لهم ، يا جداه . لو كانوا يعرفون ما كانوا
 قد أقدموا على ما فعلوه قط .
 لا يفهم المعجوز . يقف مندهشا .
 - ممن تتكلم ، يا بني ؟
 - عن أولئك الذين قتلوا طائريك ، يا عم ديمتري . انهم أصدقاء
 لي .

أحس برغبة ترمضان ، وقلبه يدق .
 بصوت خفيض ، يسأل :
 - تقول قتلوهما ؟
 - آه ... ألم تكن تعرف ذلك ؟
 بعض الفتى شفتيه ، ولكن فات الأوان . يخبره بالقصة : انهم
 صحبة من الشباب - خرجوا للصيد . نزلوا إلى الشط . انخفض
 النورسان عن مستوى بقية السرب . أطلق صديقهما الرصاص من
 أجل أن يجرب . وبعد ذلك ، تعرف بعض الصيادين الذين كانوا على
 مقربة من المكان على الجناحين الموشين بالنقط الرمادية .
 مضى المعجوز بصفى ، ويصفى . ليس في الأمر شيء ذو بال .
 كانا مجرد نورسين .

تقول الفتاة بصوت دافئ ، وقد استولى عليها الأسى بسبب الحزن
 الأخرس الذي تراه باديا على الوجه الهرم :
 - لم يكن يعرفون ، يا جداه ، لم يكن يعرفون ...
 قال وهو يهز رأسه ببطء مقذرا :
 - أجل ، أجل ، يا بني . انهم لم يكونوا يعرفون .
 مضت برهة صمت طويل .
 يقول الفتى :

- يجب أن تنصرف .
 تنهض الفتاة .
 - فلتنصرف .
 يمضيان في المقدمة ، ومن خلفهما بقليل يأتي المعجوز .
 وصلوا إلى الشاطئ .
 بادرت الفتاة قائلة :
 - سلامنا إليك ، يا جداه .
 تناول يده ، وتحنن لتقبلها ، فربت على شعرها الطويل .

يستمع متأثرا :

فليبارككما الله .

رحلا . أخذ يتابع وقتا طويلا الشق الذي يحدثه في ماء البحر كل من جسديهما ، غابا عن أنظاره . وظل البحر أمامه دائم الوحشة ، مترامى الأطراف .

يهبط الليل . كان قد جلس الى الرصيف ، والساعات تمر . كل شيء يتتابع أمام عينيه المعتمتين : سنوات صباه ، الولدان اللدان رباهما ثم ضاعا ، الناس الذين أذاقوه المرارة . كل شيء يخطر ، وكل شيء ينطفئ ، الولدان اللدان تبادلا القبل هنا في هذا المكان ذاته ، منذ بضع ساعات خلت . سرب من النورس يطير عاليا ، نورسان لهما جناحان على ريشهما يقع رمادية . وهذه تمر وتضيع أيضا . ما من شيء يعود أبدا .

أطرق رأسه ، انحدرت دموعه الى الأرض اليابسة ، من فوقه كان نور الفئار يومض وينطفئ ، مرة تلو مرة ، في الفترة الزمنية ذاتها ، بصرامة ودون أن يكون منه ثمة مفر ، مثل القوى المظلمة في الحياة ، مثل قدر الانسان ، ومثل الموت .

المغف

يوانيس بانايوتوبولوس



المغنى

اشتريناه ذات يوم مطير في جنيف . قلنا فلنشتري ايضا ديكا
فاخذنا الى البيت ، ليكون فوات الوقت ، اقل وطأة ، وليخفف عن
القلوب السأم والرتابة . لان هذا النوع من الساعات ذات الديكة ،
بطابعها البيتي الاثير تنسجم فورا مع الأشياء وتتصادق سريعا مع
الاحداث ، ويصبح ديكا الرفيق الحبيب لكل لحظة . ينفث في
السكون المخيم صوتا ناعما صورا ، لحظة مفعمة بالحنان والخشوع
تدخل الامان والهدوء الى القلوب .

كم كان جميلا ذلك الكوكو . كان كله من الخشب الابيض
المنقوش ، يذكر بالغابة في منتصف الشتاء . كانت الساعات مكتوبة
بأحرف لاتينية بيضاء ، ولم يكن ذلك البياض شاحبا مثل بياض
السكر أو اللبن ، بل كان بياضا طازجا مثل حبة اللوز النضرة .
لون ابيض مثل بياضها . وحول ذلك اكليل من ورق الشجر
الدكن ، وأوراق أخرى عالية فوق السقيفة ، بتوسطها طائر صغير .
ومن الباب السفلى تتدلى ثلاث سلاسل طويلة نقشت على طرف
منها حبات الصنوبر . وعندما ينتصف النهار في الظهيرة ، وعندما
يتقدم الليل حتى منتصفه تتدلى هذه الحبات الى الحد الذي يحتاج
أن يجذب المرء السلاسل من طرفها الآخر حتى يعمل الكوكو .

كانت جدران ذلك الدكان في جنيف الذي دخلناه تحت وابل من
المطر ، مغطاة بساعات كثيرة من هذا الصنف . كل منها هالم بداته ،
مختلف من غيره . وباستطاعتك اذا كنت لماحا مفتوح العينين ان
تختار عالمك . أشار الولدان الى الساعة . جربناها ، فاكدنا من
انها تدق معلنة الساعات . وتحت السقيفة كلما اكتملت من الزمن
ساعة ، أو نصف ساعة انفتحت نافدتان في هدوء . من احداهما
يطل الطائر يصيح مؤذنا بالوقت . ومن الأخرى يخرج انسيان
صغير ، انه المغنى ، يشدو ببضع عبارات موجزة ، بأغنية قصيرة .
وكان للأغنية اسمها المطبوع على ألحان الخلفى . «طيور الروابي»
وهكذا جاء الكوكو الى اثينا ، الى البيت ، في صندوق كبير ،
محاطا بالكثير من لفائف الورق ونشارة الخشب خشية أن يصاب

بالتلف في رحلته الطويلة . وأصبح رفيق كل لحظة ، الحبيب الى كل القلوب . في أول الأمر ، كان الأولاد يمللون ويطربون أشد الطرب كلما سمعوا الكوكو الصداح مغردا ، وفي أعقابهم المغنى يشدو بأغنيته . كان الأولاد يريدون أن يجذبوا السلاسل ، وأن يمضوا في جذبها بلا توقف . ولكنهم ما لبثوا أن ملوا الأمر في النهاية . وما عادوا يزعمون الكوكو أو المغنى . تركوهما يتدمجان مع سائر أشياء البيت ويصبحان من علاماته المميزة ، ضمن سائر العلامات الأخرى . الى أن جاء ذات يوم خرج الكوكو فيه من نافذته وصدح ، لكنه صدح وحيدا ، ولم تفتح النافذة المجاورة . فقد لزم المغنى الصمت . تبادل الجميع النظرات فجأة وتساءلوا :
- ماذا جرى للفناء ؟ ماذا أصاب المغنى ؟

كان الشيء المؤكد ان ثمة صوتا جيبيا قد صمت . ويتم البيت فجأة . انتصفت الساعة ثم اكملت دورتها بعد ذلك ، وظل الديك يدعو جاره أن يفتح النافذة دون جدوى . قلنا أن نأخذ الساعة الى مصلح الساعات . كان الأمر صعبا ! البيت بعيد ، بعيد جدا . قلنا لا يليق أن نحمل الساعة اليه ، فلنحضره الى البيت . صبب كل شيء وسير ! ليس لدى صانع الساعات وقت أن يمضي مسافرا من بيت الى بيت جريا وراء الساعات المريضة . وفي النهاية لم نفعل شيئا . وربما كان المغنى في حجرته الضيقة يعتب علينا هذا الإهمال ولكن شواغل أخرى كثيرة طرات أيضا في تلك الأثناء ، كما تطرا على الدوام في حياة الإنسان ومصره ، ونسينا المغنى . أقبل الشتاء واشتد زهريه ، والكوكو ذلك الطائر اليتيم يخرج في عزله الى نافذته يعلن الساعة ونصف الساعة . يدور نصف دائرة من هنا ونصف دائرة من هناك . وتتجمع الساعات الى جوار الساعات ، ويتحول النهار ، وينقضي انليل ، وتتبدل الفصول . يأتي الربيع ثم الصيف ، ثم يقبل الخريف من جديد ومن بعده شتاء آخر . وهذا أمر على غاية من البساطة وعلى غاية من الجسامة معا . انه زمن الانسان ، ممزق ، خرافي ، ملئ بالجمال والمرارة .

ذات ليلة وأنا سهران منكب على كوم من الورق اذا بي اسمع الفناء ينسكب في السكون المخيم ، وتغد الى « طيور الروابي » بكلماتها العذبة . من يستطيع أن يدرك مدى ما عاناه المغنى كي يتغلب على ركوده ويقوى على الخروج الى نافذته ؟ وقلت لنفسى :

« ان هذا لأمر رائع ! » أجل ، انه رائع ! الانسسان الخشبي الصغير يسترته الخضراء وصدرته الزاهية وسرواله القصير وقبعته التيرولية ذات الريشة النافرة ، والخدين المنتفخين ، الروح الطاهر في البيت ، هاد الى صحبتنا من جديد . وباعتقادي أن لديه الكثير مما يريد أن يقوله لنا ، الكثير من الغرائب حقا . ان العزلة تملأ عقل الانسان بالأفكار وتطلق العنان لأحلامه . ولكن المغنى المسكين لم يكن لديه سوى أغنية ، رتيبة ملتزمة . ووجب أن تتسع هذه الأغنية لكل شيء ! دار بخلدى هذا الخاطر ، وخواطر شبيهة أخرى أيضا . ثم سمعت الشباك الصغير يفلق . فتركت كوم الورق وشأنه وانتظرت مجيء موعد اعلان انتصاف الساعة ، ثم موعد اكتمالها ثم موعد انتصافها وموعد اكتمالها من جديد . وشعرت بالليل يوغل من حولي ويترداد اتساعا ، دون أن يعود الشباك الصغير الى الافتتاح حتى انتصف الليل ثم أقبلت خفيفة الخطى الساعات الأولى للنهار الذي أوشك أن ينضج على غصن الظلام العارى . وعندئذ عدت أقول لنفسى اننى ربما لم أسمع المغنى قط وان كل هذا مجرد لعبة من الاميب الخيال .

جلست اليوم التالى ورويت الأمير للآخرين . فاندھش الجميع . وعلق الأولاد أنصارهم بالشباك الصغير المغلق . وقد أحسوا براحة جد عميقة عندما عرفوا أن المغنى لم يمت . كان الأمر مؤكدا ، أنه لم يمت . وتمنيت أن يخرج الانسان الصغير البهيج بعد قليل ويفنى مرة أخرى . وقد وجد الكوكو أيضا انيسه من جديد . ووجدنا نحن الصديق الحبيب . ومنذ ذلك الحين بقى الحال على ذلك النوال . فى اللحظة التى لا يتوقعه أحد يفتح المغنى نافذته ويفنى . مرة ومرتين فى اليوم . ثم يلزم الصمت أيا ما عديدة ، أسبوعا وأسابيع ، تخلص المغنى من الضرورة . تحلل من الالتزام وظفر بحريته . هذا كل ما فى الأمر . انه يفنى الآن بمزاجه . ولهذا تكتسى أغنيته بطابع منفرد فى كل مرة ، تصير صوتا غير خاضع ، طلبا متجددا على الدوام . لقد علم الصمت المغنى أشياء كثيرة ، ونفخه بارادة خاصة به ، جعلته اكثر انسانية .

لاشك ، أننا فى كل وقت نستطيع أن نذهب به الى مصلح الساعات ، ونخضعه لقانون الالهة الصارم ، ونحكم عليه بان يكرر نفسه بانتظام ونمطية . ولكن من هذا الذى قسا قلبه حتى يقدم على عمل مثل هذا .

صورة فتاة

يوانيس بانايوتو بولوس



صورة فتاة

كانت القاعة رحية ، مربعة الحجم تقريبا ، أربعة جدران لا نهاية لها . بالطابق الأول من البيت . تصعد الدرج الرخامي ، ثم تقابلك نجيلات الزينة في الأصص على العتبة . نظم صاحب البيت معرضا تذكاريا للبورترية . وفي كثير من الأحيان ، تتضمن هذه المعارض التذكارية من الأشجان قدرا كبيرا ، وذلك مثلما يحدث لك ، عندما يتصادف أن تجلس ، في مساء شتائي خافت الضوء خليل وتنبش لفافة من الصور القديمة . أو مثلما يتصادف أن تجد نفسك وحيدا في الطريق ، بالليل ، وتطالع النوافذ المضيئة مرهف السمع الى الريح في صفوف الشجر . هناك تفاصيل صغيرة تظل ساكنة في القلب ، ولعل في هذه التفاصيل وحدها تتبلور الحياة الخاصة لكل انسان .

القاعة رحية ، مربعة تقريبا . كساها صاحبها بورق رمادي فاتح اللون ، كي تزداد الأطر الذهبية بريقا . وقد جمع البورترية من بيوت عديدة ، غنية وفقيرة ، ولم يرفض أحد إعطائه ما لديه ، لأن الجميع يعرفون كم كان هذا الرجل محبا للفنون ، حريصا ، مخلصا لعمله ، لا تحركه منافع مادية ، وهو الأمر الذي يصعب أن تجده في هذا العالم . بل وطبع دعوات أنيقة للمعرض : « مائة عام من لوحات البورترية » ورغب المصورين ترتيبا تاريخيا بحيث لا يتسنى لأحد أن يتدمر . أشياء تقليدية ، ليس لها بطبيعة الحال مغزى ، ولكن يحدث في كثير من الأحيان على أي حال ، أن يضاف عليها الجهد الإنساني الغائي - أقصد السعي الإنساني نحو المجد الزائل - يضاف عليها دلالة .

ذهبت إلى المعرض أسية الافتتاح . كان الجو ممطرا ، والمظلات السوداء المفتوحة تملأ كل مكان . الخطوات على الأسفلت زلقة ، والأضواء عيون نافسة ، والمزيات - وقد كانت عديدة - تصعد وتنزل الطريق زاحفة ، في المطر شحنة من الشعر جعلت كل قطرة من رخانه زهرة تفتتح . كانت الأنوار في القاعة وضاءة . ذابت في وهجها الأطر الذهبية ولالات ، ومنها خرجت الشخصوس واختلطت

بالمفرجين . رجالاً هنوا باللحية والفودين . قيمات عالية ، حلل
 سهرة ، عصي زينت بنقوش محفورة ورووس فضية . مآزر ملقاة
 على الاكتاف ، وشيلان ، ونظارات انحدرت الى أطراف الأتوف ،
 أزياء رسمية ومهاميز ، وريش ، وأوسمة عديدة . كانت هناك أيضا
 نساء يلبسن أحذية حريرية وفساتين طويلة ، متماوجة موشبأة
 مطرزة محلاة بالشرائط والخرز ، اكتاف بيضاء محاطة بأوشبحة
 شفافة ، قفازات مديدة واصله الى الكوع أو الى أعلى من ذلك
 قلائد وأساور وساعات صغيرة ذهبية تتدلى من عرى الثياب .
 أناس ذوو نفوذ وقواد ومعارك ، أهل فن وثراء ، نجوم مجتمع ،
 حكماء ، رجال معديون ، أسماء معروفة ، وأخرى منسية ، ومن
 حول هؤلاء جميعها يحوم الموت على كل شيء . يذكرك مرآهم
 بالمقبرة . كانت تشكل مجتمعا غريبا تلك البورتريهات التي تتمدى
 أطرافها فجأة وتنزل تندمج مع الأحياء وتنصت للمطر الودود الذي كان
 بدوره مغمما بالحياة ويفنى في دووب الخريف . وبالأغوار ، وسط
 الحائط ، صورة فتاة شابة . وجه تفرمه الشمس في بستان ، وجه
 تضئبه أشعة مصفاة تظلت أغصانا نضرة . أذكر الوجه والقوام ،
 والثوب الفضفاض المتماوج ، والقبعة العريضة ، والمظلة الكبيرة .
 أذكر العينين القطيعيتين اللامطفتين ، والشفقتين دافقتي الرضاب ،
 متفتحتين كزهرة ، هكذا تحس بهما ، والنهدين تدرك من وراء الثوب
 مبلغ تماسكهما ، والدرامين اللتين خلقتا للعناق . كان الاحتمال
 بعيدا أن يكون قد وجد هذا الجسد ، وهذا الوجه الذي كان
 ومضة خيال أكثر منه حضورا ماديا . ولم يكن الأمر واجعا الى فن
 المصور الذي بإمكانك أن تعتبره نموذجا أيضا ، بقدر ما رجع الى
 شباب الفتاة الروامض ، الزائق المتفتح ، فهذا هو الذي كان يسحرك
 حقاً . اقترب منى صاحب البيت . كانت السعادة تفرمه ، تلك
 الليلة ، وسط الجمهور الفقير ، والأحاديث ، وعبوات الدهشة
 والاعجاب ، والتأثر ، وسط الأبناء والأحفاد .

قلت له :

- خبرني عن اسمها .
- رجائي أهلها إلا أذكره لأحد أبدا .
- هل تعرفه ؟
- بلا شك ، أرفقه .
- ألا زالت موجودة أم لا ؟

أتى بحركة مبهمه ، وقال لى :

— ربما كانت موجودة .

عدت أقول له :

— من الشائع أن تسمى لوحة البورتريه بالأحرف الأولى من اسم

صاحبها .

رد على قائلا :

— هل قرأت الكتاب ؟ حتى هذه الأحرف الأولى لا وجود لها .

لم يكن يريدون ذلك اكتفوا للوحة بعنوان « فتاة الأيام الجميلة » .

— نعمون بذلك ما قبل الحرب الأولى .

— أجل ، قبل الحرب العالمية ، لا تصر . سواء أكان الأمر كذلك

أو لم يكن ، فهذه العصبية ماتت .

كان المرض يفتح أبوابه في التاسعة صباحا . أمضيت ليلة

لازمني فيها الأرق . عينا الفتاة ، خداه ، شفاتها ، كل ذلك كان

يلمع في الظلام . جمال ممثلي ، برى ، غير مخدوش . جمال

لم يكن بالإمكان أن تستوعبه كله في صدرك ، فيفيض ويفمرك بضياه .

أثينا تهدم ، ويعاد بناؤها ، تفقد روحها القديمة ، وإلى أن

تكتسب روحا جديدة ستعطي سنين وسنين . وبين الحين والحين

يصادف المرء بين الأطلال والأبنية الجديدة البيوت التي عاش فيها

من طواهم الموت من الأجداد ، والسلطات ذات الدرجات المريضة

اللولبية ، والعتبات التي صفت عليها الأصص الكبيرة ، حيث تفتحت

أوراق نخيلات الزينة اللضرة ، وثبتت المرايا التي صنعت فينيسيا ،

والثريات المدلاة من الأسقف الخشبية المزدانة بالرسوم ، واللوحات

التي مضت عليها العديد من السنين في أطرافها المذهبة المعتمة . في

بيت مثل هذا ، كنت أرى الفتاة صاحبة الصورة ، وقد انفصلت

عن إطارها ومضت تصعد السلم درجة درجة ، يتثنى قوامها في

دلال . كانت الابنة الوحيدة ، تدرس الفرنسية ، وتتلدرب على

البيانو . كانت لديها مروحة كبيرة تروح بها عن نفسها في ليالي

الصيف أثناء حضورها المسرح . في تلك الأيام التي كانت تقسّم

مسرحية «كونت لوكسمبرج» تهوى الشعر ، ترتدى فساتين طويلة ،

وحذاء عاليا ، وتهامس مع صديقاتها عن الشهبان المتأنقين الذين

يمرون تحت شباكها ، يدقون بلاط الرصيف بعصيم العصبية ،

وتند منهم تنهدات عاطفية ، كان أبوها من كبار القضاة ، أو شيء

من هذا القبيل بالطبع . يجلس في كرسيه يربت على لحية ذقنه . يقرأ

« الاستيا » يفتح كيس تيفه . يلف لنفسه سيجارة ، ويناقش أمور السياسة بحماس . أما الأم فهي ابنة أحد الضباط الكبار ، أو شيء من هذا القبيل بالطبع . تعد في المطبخ يدها الفطائر ، تضع لعصفور الكناريا ورقة خض ، تغزل جوارب ، وتتصفح مجلة «نجمة الأسرة» . إلى هذا العالم كانت تنتمي الصورة . في تلك الأيام كان الرجال يشيخون في الأربعين ، وكانت النساء يحملن في حقائبهن زجاجات النوشادر لعلمهن بأن آداب السلوك توجب أن يغشى عليهن من وقت لآخر .

وكان يحدث أن يأتي الحب ، الحب الكبير ، الحب بلا أمل ، الحب المتغنى به في أغنيات مثل « بنت علقت على صدرها صليبا من ذهب » و « لو راحت تلك الأيام ، أيام الحب السعيد » وغير ذلك من أغاني الحب في الحياة والممات . الوقت متأخر في الدرب الهادي الساجي في الضوء المرتعش المنسكب من مصباح غازي . أنغام قيثاره تعزف تحت شباكها الذي ووربت ضلفته . تتنهد مع رياح يناير الشتائية ، مع المطر ، مع قيقظ الصيف . أزمان وأزمان ما من أحد كان يعبر الأنغام التفاتا ، وهي لا تنوى السكوت . ثم درس عازف القيثاره فن التصوير . صار طوال اليوم يجلس يملأ الصفحات برسم وحيد ، لا يستبدله بموضوع آخر ، وجهها هو الموضوع الوحيد . يجلس يملأ مساحات الشمع الوانا ، كي يتسنى له أن يمسك بشيء من ضيائها . وفي النهاية ، وهو عائد ذات ليلة من معهد الموسيقى ، تلكا عامدا ، والتقى بها في الدرب الهادي . انه الفتى صاحب القيثاره الذي درس التصوير . التقى بها وجها لوجه ، وابتسم لها . هذا كل ماجرى بينهما حدث هذا في العهد الذي قتل فيه ديليغاني صاحب الياقة العريضة المرتفعة والسترة السوداء المحكمة الأزرار . هذا كل ماجرى بينهما . وبعد قليل ، بدأت الفتاة تتأخر في العودة الى البيت . وتمت اللقاءات المختلصة . ثم جاءت القيلة الأولى ، حافلة بالجزع والمعاناة . القيلة التي لاتنسى أبدا ، ويعجز الوصف عن الاحاطة بها . كم كانت ترتعد من قمة رأسها الى اخمص قدمها ! كم سهرت مؤرقه بعد ذلك تفكر فيها بلا شبع ، في تلك القيلة الأولى !

الفترة الاولى ، كانت أيام الشغف والنشوة ، ثم بعد ذلك جاءت أيام الاخلاص والاعزاز ، ثم تعد هذه أيام العشق ، بل كانت أيام الحب . سعادة تفكر فيها وتبلاك شجنا .

منذ التاسعة صباحا ، وقد أسكرني مسحة الملاك في أرقى ،
والحوار الخفي مع الجمال ، جلست أنظر الى صورة الشابة ، كنت
قد صنعت قصتها ، على النحو الذي حاولت ان ارويهِ آنفا .
جلست أنظر . كنت وحدي . ثم جاء صاحب البيت ، وقال لي :
- احسنت صنعا . في ساعة مثل هذه يمكنك ان تتأمل كل
ماتريد في هدوء .

ثم جاءت سيدة مسنة . سيدة مسنة عادية لم انتبه اليها .
جلست على الأريكة الصغيرة وسط القاعة وفي النهاية ، بدأ الجمهور
يقبل . انصرفت ولكن ليس الى غير رجعة . بعد الظهر ، كنت
هناك من جديد . افكر في الوجه ، في الجسد ، في الصديد من
الاشياء . كنت افكر . صارت صورة الفتاة ، فجأة ، قدرى . كان
صاحب البيت غائبا . اراخى هذا . جاءت السيدة المسنة مرة
أخرى . زدت من تأملي لها . كانت ترتدي قميصا قديما
وقفازا تناثرت عليه البقع ، وحذاء أسود بال . كانت من ذوى الشواء
واخنى عليها الدهر . هكذا كانت تبدو . جلست على الأريكة الصغيرة
بجوارها في مواجهة الصورة . كنا ننظر الى الوجه ذاته ، والجسد
ذاته ، نحن الاثنان . يجب ان انبه الى اننى طيبب ، وفي ذلك
الحين حصلت على اجازة من المستشفى كي اكتب رسالتى لنيسل
الدكتوراه في موضوع نقص الفيتامينات عند العاملين بالبحر . ومن
التزيد ان اقول ان البحر ماعاد يهمنى في شيء . تركت جانبى
نقص الفيتامينات وصرت العاشق المقيم بصورة الفتاة . في اليوم
الثالث ، دققت النظر في المرأة المسنة . كان وجهها مليئا بالتحايد ،
وتكسوه طبقة من الشعر الخفيف مثل القسطل . كانت رقبتها
مدفونة في ياقة عالية ، وقد تجملت مقلتها ، وشفتاها بيستا .
وتحت الرداء بإمكانك ان تتخيل عظام هيكلها . وجود يكاد يكون
علما ، سيطر عليه الزمن وواقعه في عبودية رهيبية . تبادلنا تحية
الصباح . وبداخل كل منا نمت نحو الآخر مودة .

- تروق لك صورة الفتاة هذه ؟

- أسكرتنى ! يا للخسارة انها لا تباع !

- أجل ، يا للخسارة !

- ما كنت أتصور ان يستطيع مصور متوسط الكفاية ان يترك

لنا مثل هذا الأثر .

- لم يكن متوسط الكفاية ! كان مصورا كبيرا ؟

نظرت الى بوجه خالٍ من التعبير . نهضت ومضت الى احد
الأرفف بالحائط وقتت عنده . كل شيء كان يسقط عليها . الثياب
ذاتها ، القوام ذاته . وعلى أي حال ، صرنا صديقين مرة أخرى .
وحدث أن جاء صاحب البيت أيضا .

— أنت هنا ، من جديد ؟

— قادمي الطريق .

أحسست بأنني قد صرت أحمق . وما الحماقة ؟ شيء مثل هذا
الذي أقطعه . انصرفت السيدة المسنة . وبمسد الظهيرة لم يكن
صاحب البيت موجودا . لكن السيدة المسنة كانت هناك . ابتسمت
لي :

— الا زلت تعتبره مصورا عاديا ؟

كان صوتها مشروخا مرتعدا ، وقد جللها الحداد .

— لا أعرف ما إذا كان متوسط الكفاية ، هذا المصور . ماعدت

أعرف شيئا .

شرعت أدرس حالتي بعيني طيب .

قلت في هدوء :

— أحببت هذه المرأة .

أحسست ان المرأة المسنة الى جوارى تنتفض ، مثلما يخفق جناح

طائر . ثم قالت لي بحزم :

— لا تات الى هنا بمسد الآن !

— اتعرفينها ؟

— أجل ، كنت أعرفها . أما الآن فهي ميتة . ماتت منذ وقت

طويل .

— وكان جمالها آسرا ، خياليا ، كما يبدو في هذه اللوحة ؟

ظفرت من عينيها الدموع .

— كانت صديقة ، صديقة لصيقة بي . نشأنا وكبرنا معا . أجل ،

كان جمالها آسرا . أما الآن ، فما عاد يوجد شيء .

كانت كلماتها الأخيرة هذه ، كما لو كانت تغد من أعماق بئر .

أصبحت متأكدا من ان الحب صورة من صور الحماقة . عدت

أسأل :

— هل ماتت شبابة ؟

لم تجب . وفي النهاية قالت :

— ماتت يوما بعد يوم ، وريدا رويدا . هكذا ، كما نموت جميعا .

غربت عيناها . وانسحبت الى صمت عميم . انصرفت من جوارها ،
 واحسست بداخلي ضوءاً يومض . انتظرت صباح البيت .
 انتحيت به جانباً . كان صوتي ممثلاً بالانفعال ، وسألته :
 - من هذه المرأة ؟
 اشرت الى السيدة المسنة ، وعدت اسبسال :
 - من هذه المرأة ؟ لماذا تأتي كل يوم الى هنا . وفي ذات المكان
 تقف ، والى ذات الوجه تنظر ؟
 ابتسم صباح البيت ، ولم يقل شيئاً .
 سألته مرة أخرى :
 - أهى هذه ؟ لم تمت اذن ؟ أهى هذه ؟
 أجاب صباح البيت بهدوء :
 - أجل . انها هى .
 اجسست بالخليقة تنهار بداخلي .
 وقال صباح البيت متسائلاً :
 - وما الموت فى نظرك ؟ الموت هو هذا !
 خجلت ان ابكى . لكننى احسست بنهر من الدموع يشبّق
 احشائي . . دموع من أجل المرأة ، من أجلى ، من أجل القبر
 الاسود ، من أجل الانسان الذى يموت يوماً بعد يوم ، رويداً رويداً .

البحر

الكيفياديس يانوبولوس



البحر

كان منقوشا على البساط الجلوب من أوروبا ، في وسطه ، ثلاث نخلات باسقات . وكان ساق النخلة الوسطى ، مستقيما فارما وأطول من ساقى النختين الأخرين ، اللتين تشكلان قوسين ينحنيان بدقة تامة وتناسق محكم ، الأول ناحية اليمين والثاني ناحية اليسار . وينشق من قمة كل نخلة سقف عريض مسنون بدع التنسيق . كل ذلك مرسوم بالأوان قوية ، خضراء ، وصفراء ، وبنفسجية . ويصور المنظر صجراء تكسوها رمال وردية . على ان طرافة هذا المنظر كانت تتمثل في رجلين زنجيين . يقف أولهما وقفة جانبية الى جوار التخييل ، عارى الجسم حتى الوسط . يتفجر اللون الأحمر من شففيه وفتحى أنفه ، وحدقتا عينيه شديديتا البياض ، أما الزنجرى الثاني فيقف في المواجهة بمعامة بيضاء وحزام مزركش . كان المشهد ينقصه حقا رقعة فسحة من السماء ، أو حتى خطا يمثل الأفق . لكن السماء كانت تحجبها تلك العلية عند الحافة . وما كان يمكن أن يعتبر افقا ذلك الخط الضيق المرتفع باهت الزرقة .

كان الصغيران ، الولد واخته ، يقولان آنذاك من ذلك الخط انه البحر . وقد مضت اليوم سنوات وسنوات وما عاد للبساط الطريف وجود . وقد كانت تبلى اطرافه يوما بعد يوم ، وتتناكل ويمتريها القدم ، فكان أهل البيت يقصونها ويرفونها . ويبسدون مكانها في البيت مرة بعد الأخرى . وفي النهاية غمر النسيان ذلك البساط حتى قبل أن تضع بقاياها الأخيرة . ومن ثم ، ربما كانت أوصافه التفصيلية الآن غير مطابقة للواقع تماما .

كانت الغرفة التي وضع بها البساط أول الأمر مخصصة للضيوف ، فكان محظورا دخولها على الولدين الصغيرين . وإذا حدث أن تسللا إليها خلسة ، سارا في حذر على أطراف أصابعهما . وعندما لم يكن في البيت زوار كانت نوافذ الغرفة تغلق وتندلى عليها ستائر ثقيلة جميلة . وفي ساعات الأصيل تسرب الى الغرف من خلال ثنانيا الضلف الخشبية أشعة من الشمس تضيف الى البساط

زخارف متحركة ، عند سقوطها على الشهد الغريب على الأرض .
على حوائط تلك الغرفة علقت الصور الكبيرة ذات الأطر الذهبية :
صورة الأب بنظراته الصارمة المستغرقة في التفكير والتي لا تفارقه
حتى في لحظات صفوه ، وصورة الأم بلامحها الوسيمة التي
لا زالت تحتفظ بحلاوتها حتى اليوم ، وصور الأجداد واحدا واحدا .
ثم بعد ذلك ، كانت هناك صورة فتاة شابة تبسم ابتسامة حزينة .
عن تلك الصبية - التي كانت جميلة حقا - لم يكن الصغيران
يعرفان سوى أنها سافرت ذات يوم . « إلى أين ؟ لماذا ؟ » وان
أسمها خريس . لم يكونا قد رأياها قط ، وما كان أحد في البيت
يتحدث عنها في حضورهما . بل إن ثمة شيئا آخر كان يحدث
أيضا . ربما رجع الأمر إلى زاوية الحائط حيث كانت توجد ، أو
ربما إلى طبيعة عينيها . فقد كانت ثمة لحظات - وعلى الأخص ،
عندما كان يخفت الضوء في الغروب - تتعلق فيها نظراتها
بالبساط على الأرض .

وقد كان أول من لاحظ ذلك هو الأخت الصغيرة - كانت آنذاك
في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها - وقد أخبرت بذلك
أخاها الذي يكبرها بقليل قائلة :

- أرايت ، ياستيليو ، كيف تنظر خريس إلى البحر ؟

- ولماذا تنظر إلى البحر ؟

- ها هي ، تطل إلى حيث يوجد البحر ، هناك .

ويلمع في عينيها المنبهرتين ، وهي تنطق بكلمة البحر ، يلمع حقا
الخط الضيق ذو اللون الأزرق الباهت المرسم على السجادة .
ثم يتسع وينسط على مساحة خيالية ، مغطيا تماما حيوان الغرفة
المعلقة ، ومنطلقا إلى ضياء سماء شفقانة ، إلى عالم مجهول
يقمره نور صاف .

عالم مجهول .. رؤيا من سفن يفيضاد ، تكاد تتمايل ، كما لو
كانت مبهودا تهددها يد خفية ، وقد وفرفت السكينة على تلك
المهود الوديمة . وغمر الأرجاء إحساس بالاستسباق والتألف
وبرصانة حلوة .

يقول سيستيليو : السفن تمضي إلى مدن تشبه فيها العمائر
قلاعا ، نوافذها فتحات مربعة لا حصر لها ولا عدد . ثم يردف
قائلا : « ولكن اليس للشيطان هناك وجود ؟ تنتصب ههناك
أشجار النخيل ، مثل تلك التي على البساط ، ويرتفع سمعها حتى

تلمس أطرافه أديم السماء .. ثم هناك الشوارع .. خطوطها على الجانبين تجري ، تجري كي تلتقي في ركن بعيدا ، بعيدا ، هناك . يجب أن تغمضي عينيك حتى ترى كل ذلك « ثم يعض ستيديو ، فيقول مؤكدا : » الناس في المدن ليس لديهم وقت لمثل هذه الأمور . ولاهم أيضا يحلمون « . وتسال الأخت الصغيرة قائلة : « حسنا .. لكن أين تذهب الصبايا الجميلات مثل التصاوير ، الباسمات في حزن ؟ »

ان خريس حتى في الخيال مقصية . وهي ، هنا ، في البيت ، غريبة . لهذا فهي خفيضة العينين تتشبث نظراتها بالبحر الأزرق الساكن ، المسجي على الأرض قبالتها ...

هذا ما كان يحدث عندما تكون النوافذ موصدة . لكن الأمر كان يختلف عندما كان يجيء زوار . كانت تزورهم على غرة السيدة فلانة ، وهي صديقة حميمة للام . تنتقى الضيفة مقعدا وتجلس . كانت المقاعد مثبتة في أماكنها التي لا تتغير . الأشياء كلها يسودها ذلك النظام الهندسي المقدر أن يوجد في « غرف الاستقبال » وفي جانب من الغرفة ، ليس في الوسط تماما ، المنضدة الصغيرة . وهناك أيضا المقاعد الأخرى ، والكراسي الثلاثة الواطئة بلا مساند ، والدولاب الزجاجي الذي يحتوي على الأنية المفضضة ، وهناك الخزانتان المكشوفتان ، كل منهما في ركن بالغرفة . في الأولى التحف المنمنة والعلب الصغيرة وطرائف أخرى متنوعة . أما في الخزانة الأخرى فتعرض المحارة الوردية الكبيرة « أسسمين البحر ، يانينا ؟ » - كان نينا اسم الأخت الصغيرة - وآناء الزهر الأخضر القيم ، وبه الزهور الصناعية ، وكأنها زهور حقيقية .. تقول السيدة فلانة مؤكدة :

- لن أبقى طويلا ، يا عزيزتي إيريني ...

فتجيب الأم محتجة :

- لم أرك منذ أمد طويل ، يا امرأة ! واني لا أخرج الا نادرا ..

- ولما ذلك ، بالله عليك ؟ ليس هذا تصرفا طيبا من جانبك .

فتقول الأم :

- سأخبرك .. سأخبرك ..

ثم تنادى الخادمة ، وتقول لها :

- النيبافلة ، يا ماريكا .

ولم يتسن قط لماريكا أن تفتح النافذة في الوقت المناسب . فقد

- نينا ، ستيليو ! لاتقنا هنا ، اذهبا الى غرفة الطعام !
للاسرار حرمتها . على انه قد تصادف ذات يوم ان رأى الولدان
مشهدا غير مألوف . وقفت الضيفة امام صورة خريس ، وكما لو
كانت توجه الخطاب اليها أومات برأسها ، كانت هذه الإيماء جد
فريدة وغير متوقعة ، حتى ان الولدين ظنا ان خريس قد عادت ،
وان ذلك الوجه وجه فتاة حقيقية ، تقف هناك بالقرب منهم ،
بنظراتها القلقة التى تبدو كأنها خائفة .

وقد جعل ديبس الحياة هذا فى الصورة ، وجود الفتاة بعد ذلك
أكثر تجسما فى الغرفة الساكنة المظلمة .

ماعدات خريس ، كما كانت من قبل ، شخصية من شخصيات
الحواديت . صارت مربطة بالموجودات الأخرى المحيطة بها ،
وأصبحت من الأسرة مثل الأجداد ، الذين وان لم يكن أى من
الولدين قد عرفهم أيضا ، الا ان انتماءهم الى الحفيدين وشدة
الشبه بالأب ، وشعورهما بالقرب جعلهما ينظران اليهم على انهم
« موجودون » وليس الأمر بحاجة فى شأنهم الى أى « تفكير » .
واذا بعاطفة جديدة تتولد كلما عادت خريس تطل من حكايات من
فى البيت المتنوعة . وذات مساء ، وجد ستيليو فى الغرفة أخته نينا
جالسة على البساط الذى رسمت عليه اشجار النخيل ، فسألها :
- انت هنا ، ماذا تفعلين ؟

- لا شيء .

- تنامين ؟

- كلا ، انى أنظر .

- فى الظلمة ؟ الى ما تنظرين ؟

- لا شيء .

- ثم بعد برهة تردد قصيرة تقول :

- هل صحيح اننى أشبهها ؟

- تشبهين من ؟

- أشبه خريس .

- انت ؟ ! .. من قال ذلك ؟

- ماريكا .

- ماريكا بلهاء .

- ثم بعد برهة باصرار :

- كما ان خريس جميلة .. وليس ذلك فحسب . ان خريس

ما كانت تقبع في الظلمة مثل شبح تحلم بتوافه ...
بقيت تلك الصورة وقتا قليلا في مكانها . وعندما انتقلت الأسرة
الى بيت آخر ، لم تعد الصورة تنبوا مكانها في غرفة الطعام
« ولم يعد هناك غرفة استقبال » ولم يصبح المكان يتسع لاي
صورة من الصور السابقة . فقد كانت الشقة الجديدة أصغر ،
وأكثر تواضعا ، وفي حي أقل صحبا . وهكذا ، مع أشياء أخرى
قديمة اختفت خريس في مكان ما هناك .

وبعد ذلك بكثير ، جاء دور البساط . في اول الامر شطر الى
شطرين ثم قسم الى ثلاثة اجزاء وأصبح الآن يؤدي خدمات يومية
أكثر تواضعا . بل انه رويدا رويدا نسي ما كان عليه من حال في
سالف عهده .

وفضلا من ذلك ، فانه مع مر السنين ، وكلما غيرت الأشياء من
مواضعها واستعمالاتها ، كلما صبحت أكثر بساطة وصرافة
ووضوحا . لم تعد تكتسى بأى مسحة من الغرابة . كان وجودها
مرهونا فحسب باستخدماتها المألوفة . وصار هذا هو امر البشر
ايضا .

وأذا بخريس تصبح شخصا من الأقارب اللصيقين . كانت توجد
في الطرف الآخر من الدنيا ، سنوات وسنوات مضت عليها هناك
الآن ... كما كان ثمة مسألة تتعلق بمراث يخصصها ، تفاصيله
مكثرة ومثيرة للاشجان ...

ومع ذلك ، فعلى الرغم من كل ما هو عادي ومألوف الى حد
الرائية ، كانت تعود الى الذاكرة لحظات ، لحظات مثل غزال رشيق
يخطو بخطوات اثيرة ، خيالات بعيدة من أيام الطفولة : أسفار في
بحار لا وجود لها ، تشبه ذلك البحر الأزرق الباهت ، ذلك البحر
الفسيح الساجي ، على البساط الذي طواه النسيان . ومع تلك
اللحظات يخيم سكون ضبابي ، واحساس بحلم مريح تنتشى به
الذاكرة .

في البحور الأخرى ، البحور الحقيقية ، السفن كتل تنساب في
بطء بأشكالها المعروفة ناشرة قلاعا وصواري ، وأبراج مراقبة ،
ومداخل وكوات مستديرة .

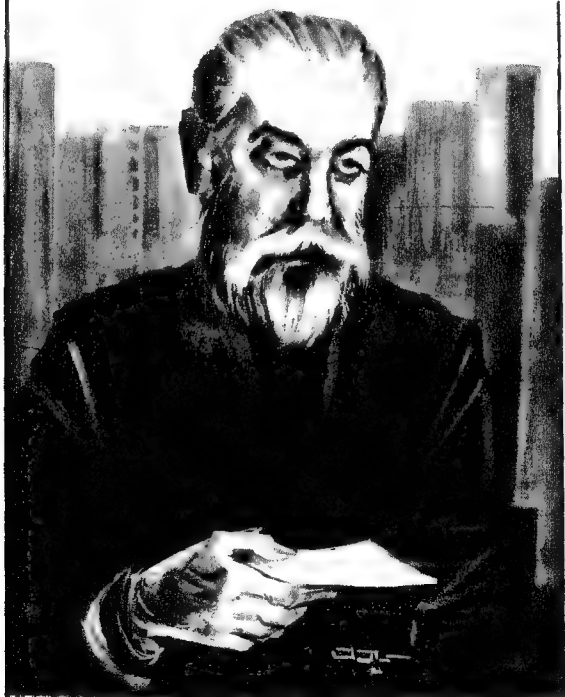
تقطر الراسي ماء أجاجا . وليست السماء على الدوام صفحة
ملساء صافية الزرقة . بل هي في بعض الأحيان جبهة غائمة
ووضاعة في بعض الأحيان الأخرى ، وتترين بين الفيتسة والفيتسة

بأسمال أرجوانية وبنفسجية . ولكنها منذ الأزل تجاهد كي تجمع
قبر أمكانها فشاوة معتمة حول الأفق ، تقف مثل سد يحتجز كل
شيء هناك . فلا يمكن اجتيازها ولا بالخيال ...

وتصل المراكب - التي تبدو ناصعة البياض ، من بعيد - إلى
الموانئ مثل طيور مترومة الريش. وتبين بلا حياء عن عددها المرتبة
وجبالها واحمالها. كلها أشياء نافعة مألوفة وحافلة بما يثير الاهتمام.
أما بحر البساط ، ذلك الخط الضيق المسحور ، فقد كان وحده
يغوى بين جنباته سعادة الدنيا بأسرها ، بطلاتها ونقاتها المبرا من
كل شائبة . كانت خريس تطل عليه بنظرات ملؤها الاصرار وكانت
تحلم. خريس في الأيام الخوالي ، تلك الفتاة الجميلة مثل التصاوير.
أين تذهب حقا ، ساعات الاصيل الماضيات ؟ آنذاك ، لم يكن
ثمة وجود للأحزان والمنفصات مثل خلاقات الميراث. كانت نينا تنسج رؤى
عن شواطئ تنمو فيها اشجار نخيل . وكان الولدان يرحلن مع
خريس ، في رحلات على أطراف الأقدام « حتى لا يحس بهم أحد »
فوق ذلك البحر ذاته ، الذي أودع « اسمي ؟ » هديره الذي
لا ينتهي في المحارة الكبيرة الوردية .

تسوية ودية

ديتري سياتوبولوس



كسوة ودية

القديس ديمترى بقعة من الأرض منزوية في الشرق من بابسة اليونان بالقرب من بحر كثير الصخور ، ينسبط مثل سجادة زرقاء نسجت حديثا ، ويمتد نحو الجنوب . يزينة هنا وهناك غزل من زهور بيضاء على مرمى البصر .

من حوله بقعة تلال تكومت قاحلة كثيبة ، تشبه أحجارها الجيرية الثالثة وجنات ضامرة لمالقة اسطوريين دب الهوال في أبدانهم . ويميدا عن الأفق العريض تلوح جبال ايفياس الوردية ساهمة كما لو كانت ظلال احلام ..

اما نعمة الله في تلك البلد فقد انحصرت في سهل صغير مستدير ذي زرع وغير ينسبط على أرض خفيفة عتيقة تحدها هضبة من حجارة جرداء تمتد في الجنوب وفي الغرب .. في هذه الضيعة توجد الكنيسة أيضا ، كنيسة القديس ديمترى محاطة بأشجار دفل كثيرة ، وزيتون دسم ، وصنوبريات مورقة ، وتين عسلى وآخر شوكى ، وأشجار بلوط ، أجيالا طويلا تبكى في الشتاء هجران الناس لها ، وفي الصيف تشدو للنفر القليل الذي يجيء من صائدى الطير والسماك وافدا من القرى المجاورة . ياتون واسرهم ، شهرا أو شهرين في الصيف . يحطون الرجال ، ويقومون في أكواخ صنعت على عجل من بوص أخضر وحبال ...

في ذلك الوقت ، يصبح القديس ديمترى خلية تمج بأولاد صفار فرحين ، يلعبون ويفضحون طوال النهار خلى البال ، وكم تبعت رؤيتهم البهجة في القلوب حقا .

هذا المكان بكنيستته الصغيرة والزرع المحيطة به ملك قديم من أملاك الأديرة . ولكن منذ العديد من السنين حتى اليوم لم يعرف السكان سوى عامل مقيم واحد ، هو العم ميتروكولاروس .

كان لأزال صيبا ، هذا المعجوز العم ميترو ، عندما ألحقه رئيس الدير اليسيوس بالعمل حارسا لهذه البقعة من الأرض ، وبمقتضى ذلك صار من واجبه ومن حقه أيضا أن يرعى الزرع الذي كان آنذاك لازال قريبا ، ويتمهد الكروم التي كانت قليلة . وبدلا من أن

يتقاضى لقاء ذلك اجرا كان له ان يجنى الثمار لنفسه . أشياء زهيدة ، لكنها جذيرة باحترام فتى وحيد معرض منه ، يتوجس الخيفة من الناس ومن أحوال الدنيا . لم تزهو على شفثه أغنية في ساعات شبابه الوحش سوى بضع ترانيم تدور حول محور حزين لا يتغير .

ثم مات اليسوس رئيس الدير ، وتعاقب من بعده رؤساء آخرون عديدون ، دون أن يذكر أجدهم القديس ديمتري وحارسه المنسى من الناس من القدر . فأحب الفتى في عزلة تلك البقعة من الأرض ، وارتبط بها حتى اليوم .

« يبدى عجنت هذه الأرض ... »

هذا ما كان يقوله لمن كانوا يمرون بتلك الناحية ، ويبسدون إعجابهم بجهوده . ثم يردف قائلا :

— ليس لى أحد في الدنيا ... هذه الأرض كانت بالنسبة لى أما وأخا وكل شيء .. وفي الليل ، عندما تنوق نفسى الى الإنسان أرتبى على الأرض ، واتشبت بها . الصق أذنى بأديهما ، وأسمع وجيب الناس من بعيد .

وتتابعت الفصول والأزمان بلا حدود تفصل بين أيام الشتاء وأيام الصيف ، بين الخريف والربيع .

ومن ساعات الضعف الإنساني والمصالحات تراكم على كاهل العم ميتسو خمسون من السنين الثقيل ، صار في هذه الناحية شجرا حقا . صار رجلا جبليا مديد القامة ، يصفر في وجه الريح لا انشودة بل ترنيمة حزينة . صار جذرا عتيقا من جذور أشجار البلوط التي تضرب موجلة في التربة ، تشبت بها متلوبة مثل ثعابين حجرية ، تظل هناك الى الأبد ..

ولكن عندما تعيش خمسين عاما كاملة في بلد بعينه دون أن تغيب عنه حتى ساعة واحدة . عندما تتحرك في حيوك مكانى بذاته ، فانك تشعر بكل شيء من حولك . تعرفه حتى المعرفة وتحبه ، ولو كان هذا المكان سحنا ، فان القضبان والأبواب الحديدية الثقيلة تصبح أخوة لك ...

أمر من هذا القبيل حدث أيضا للعجوز ميترو الأسود . كان يقول مشيرا الى صف من أشجار الزيتون المتماسكة وقد ازهرت أفصائها :

— أجل ، أترى أشجار الزيتون ، تلك ؟ انا الذى جعلت منها

هرائس تزهو بزينتها ... كانت شجيرات برية نبتت هنا وهناك
مبعثرة مثل صغار الأرناب الجبلية ... أنا الذى لمست شبطها
وزرعتها الواحدة الى جوار الأخرى . وعندما ثبتت جذورها وحانت
ساعتها المباركة ، أنا الذى زوجتها ... أنا الذى طعمتها وتمهدها
بالرعاية ... أنها - لعلك - حبة بدورها ... يبحث كل منها عن
زوجها ، عندما يحين أوانها ...

وحتى في عمره هذا ، كنت تراه من وقت لآخر وقد انحنى على
جذور أشجاره ينش التربة ويستاصل الحشائش الضارة ثم
يمسك بمكنسة من القش العطر يطوف بها المكان حتى البئر الرطيب
الذى يفتح فمه متثابرا تحت أشجار البلوط التليدة ، وينظف
الأرض بحركات مباركة كما لو كان الها كبيرا أحب مخلوقاته أكثر
من نفسه ...

وكثيرا ما كلف من التقى بهم أن يحضروا له من القرية المجاورة
جيرا ، وعندما كانت تكتسى سفوح الهضبة الجرداء برداء ناصع
النباض . كان يصلح ، هنا وهناك حجارة الأركان المهدمة ، ويضفي
النشوة حتى على الأطر الحجرية المحيطة بسيقان أشجاره - النشوة
التي يبعثها معاناة الجهد والاهتمام بالعمل ، ومهما كنت مثقلا
بالمهوم تدب فيك الفرحة ، وتشعر بصدرك يخفق وأنت ترى كل هذا .
- ولتعلم أن هذه هي حياتي أنا ... كل حجر ، كل فصن ، كل
جذر هنا هو بالنسبة لي حكاية بأكملها .
كان يهز رأسه بالأم ويردف قائلا :

- حكاية القلب . ما الذى بالإمكان أن تحب غير الطبيعة ؟ هل
هناك ما هو أجمل ؟
ثم يقول ضاحكا :

- هي بدورها أنثى ، هذه الطبيعة .. أنثى هي وإن لم تكن امرأة .
شباح وعفاريت لا توجد على هذه الأرض . فلو كان لها وجود
لمرف العجوز ميترو أمرها ولرآها منذ العديد من السنين . آلاف
الليالي الشتوية السوداء فكر في هذا الأمر أيضا ، عندما تشتد
رياح الشمال وتدور حول عشته ، وتختطف روحه وتذهب بها
بميدا إلى عوالم جد مختلفة ، إلى منحدرات مظلمة وهابية لطمتها
الأمطار والمواصف . أن العالم هلامي غير محدود المقدار .. أنه
جد رحيب ، لعلك ، بقدر عقل الإنسان ... ولكن المسكين
ميترو كان يشعر بعض الأحيان أنه يموت في غير أوانه ! .. في

بعض امسيات مؤسفة من مايو ومن اكتوبر يموت تحت اشجار البلوط ، تلك الخيفة ، ولازال في شرح شبابه ، بكوا ، بلا تطلعات بلا مغامرة مثيرة تداعب خياله الفطري ، ثم بعد ذلك ها هو يقترب من الموت فعلا عجوزا بلا امجاد او ذكرى .
وعندما كان يداعبه الصيادون الذين كانوا يحيطون رجالهم هناك .
كان يقول لهم :

— هذا ما يحدث لنا ايضا نحن البشر احيانا . هكذا يحدث :
في دفء راحة اليد تدوب حياتنا مثل كرة الثلج البيضاء ، دون ان تكف عن الامل . . دون ان تكف عن ان نترنم بأغنية الحياة . . .
ذات يوم من ايام الربيع ، في الوقت الذي كانت قد ازدهرت زهور الدفلى ، ظهر في القديس ديمتري رجل غريب يرتب دراجة .
كانت الاشجار قد عادت الى شدوها القديم ، وكل شيء من حولها قد دهن بالجير حديثا وبدا لامعا طليا ، تماما مثل الروح الخفاقة في اعماق العم ميترو ، التي تزينت بحلل الازهار بدورها ونمتت
تصلي مبتهجة برحيل الاشباح . . .

أسند الرجل دراجته الى ركن العشة ، وتمطى كي يطرد التصلب عن مفصله . فقد كدح وقتا طويلا بمعمله عبر الطريق الوعر .
جري العجوز ميترو يرحب به . رمقه الآخر بنظرات حادة .
— ديمتريو كولاروس ، انت ؟

— اجل ، يابنى . . .
— احم . . . هل استطيع ان اشرب كوبا من الماء ، ايها العجوز ؟
— بكل سرور ، ولتتناول شيئا ايضا . . .

كان اول انسبان يراه العم ميترو طوال اسبوعين ، فاراد ان يرحب به ويتجاذب معه اطراف الحديث ، عن ألف امر وامر . . .
عن دنيا البشر الذين حرم منهم طوال هذه السنين ، وعن ازدهار الزيتون ونمو الكرم ، وعن المحصول الوفير هذا العام ، وعن كل تلك الأشياء التي قالها فحسب لنسمات الربيع اياما وأيام .
لكن ذلك الرجل كان جد عبوس حتى يستمع الى أغنية قلب . . .
تجرع الكأس الصغيرة التي قدمها له العجوز ، وشرب كوب الماء دفعة واحدة . ثم أخرج من جيبه بعض الأوراق أخذ يقلبها بعناية .
مضى ميترو المسكين ينظر اليه دهشا .

وفجأة ، انتزع الرجل من كومة أوراقه ورقة كبيرة ، وصوب الى العجوز نظرة .

- ديمتريو كولاروس ، هيه؟ حارس ضياع دير القديس يواڤيل .

- أجل ، يابنى ، أنا ...

- لك معى ، أئدار ايها المعجوز ...

جذب من الأوراق ورقة كتبت بحروف صغيرة ، وامتلأت بطوايح واختام ، وتناولها للعم ميترو . ثم بسط امامه على حافة النافذة ورقة مماثلة مكتوبة على الآلة الكاتبة بدورها ، واعطاه قلمه قائلا :

- خذ ، وقع هنا بالاستلام ...

فتش المعجوز فى جيوبه من النظارة .

- ما هبله الورقة ؟

طوى الآخر سائر أوراقه ودسها فى جيبه .

- انهاء خدمة . « تسوية ودية لعقد العمل » ...

وقف المعجوز ميترو ، ومضى ينظر اليه كما لو كان لا يفهم لغته .

- كيف قلت ذلك ، يابنى ؟

- كما سمعته يا جدى .. ان الدير « وقد اصبح فى غير حاجة

الى خدماتك » - على حد قوله - يستغنى عنك ... من باكر

عليك ان تجمع حاجياتك وترحل ... غدا صباحا ، سيرسلون فيرك

ليحل محلك ...

ترك أوراقه على حافة النافذة برهة ، ومضى يبحث فى جيوبه ،

قائلا :

- ولك معى بعض النقود ستتسلمها .. تمويض .. أجرة

سبعة أشهر ...

أخرج من جيب سترته الداخلى لفافة من الأوراق المالية ووضعها

فى يد المعجوز .

- عدها .

مضى المعجوز يحملق فيه تائها . هم ان يلفظ بكلمة . ولكنها

ما ان اترقت خارجة من شفتيه حتى سقطت أرضا . ارتطمت

بالحجارة وتهشمت آلاف القطع .

التفت اليه الرجل بشئ من العصبية :

- ماذا حدث ، يا جدى ؟ لماذا لا تضع توقيعك ؟

- واثت .. انت ، يابنى .. من انت ؟

قال له الآخر بصرامة :

- أنا المحضر القضائى .. عد تقودك ووقع ، لأن وقتى لا يتسع .

يجب ان انصرف ...

أخذ العم ميترو يرتعش .

— ماذا .. ماذا يعني كل هذا ؟

— انهم يطردونك ... تتظاهر بأنك لا تفهم ، أيها العجوز ...

— من القديس ديمتري ؟

— أجل ... أنه القانون .. طالما انهم يدفعون لك تمويضا ، فهم يملكون ذلك ... عد تقودك .. أجرة ستة أشهر ... لماذا تنظر الى هكذا ؟

— انا .. يطردونني أنا من هنا ؟ من القديس ديمتري ؟

— أجل .. ألم أقل لك ذلك ؟ .. تسوية ودية

تجبرت المباراة في قفل العجوز الفقير .

« تسوية ودية ... »

جالت عيناه بنظرة مرتعشة فيما حوله ، في كل تلك الأشياء التي انفها ، وكل تلك الأشياء التي أحبها أشد الحب طوال السنين المديدة . وفجأة ، خيل اليه ان الشجر والنبات وسفع الهضبة الجرداء والتلال المجاورة — خيل اليه انها كلها قد اكتسبت دفعة واحدة الهيئة الانسانية ، ومضت تنظر اليه بتساؤل كبير ، تنظر ، اليه كلها محدقة في عينيه ...

— وأين .. أين اذهب ، يابني ؟ ..

اتى المحضر حركة تنم من الضجر .

— وهل اعرف انا أين تذهب ؟ .. اني اؤدى عملي فحسب ...

أشار الى الورقة على حافة النافذة . وقال له :

— وقع .. فقد أدركنى الليل هنا ...

انحنى كما لو كان منوما ، ووضع توقيعا مشوشا في المكان الذي أوضحه له الرجل المجهول . أخذ هذا الأخير الورقة ، وطواها مع غيرها من الأوراق .

— طاب مسألك ، أيها العجوز ... ومن الفد ، هيه ، كما قلنا ..

سوف يأتي الآخر ..

استدار نحو الدراجة . دفعها صاعدا الى الطريق المهد . ففز

عليها ، ومضى بها مسرعا . ثم غاب خلف الهضبة الحجرية .

البيضاء ...

ألقى العجوز نظرة على الورقة ذات الأختام ، ونظرة أخرى على

النقود ، ثم سمر عينيه المبلتين على النقطة التي غاب عندها الرجل

الجهول ، كما لو يكن قد احس شيئا من هذه الحكاية كلها ...
كان الوقت غروباً ، ومن جديد صبغت الشمس بصفتها
الضبابية جبال ايفياس البعيدة .. ومضت تغيب الشريعة كعادتها ،
وردية اللون ساهمة .

جزيرة يونانيّة

غالاتيا ساراندی



جزيرة يونانية

كانت الشمس على وشك أن تغيب .. السماء ذهبية ، والجو كله من ذهب ، الحقول وبساتين السكر والاسوار ، بل وفيليباس أيضا . كان فيليباس يجلس على غصن شجرة من اشجار الزيتون ، مدليا قدميه الفليظتين الحافيتين ، ومحركا ايدهما في حركات رتيبة . متخيلا ان يقع الشمس الصغيرة النافذة من خلال الاقنان المورقة انها ترقص على جلده الخشن الضامر ، فيقول : « جنيته آخر ... وآخر .. »

وبين الفينة والفينة كان يرفع راسه الى اعلى ويختلس النظر من ثنايا اوراق شجرة الزيتون . لكن السماء كانت ذهبيا لا يتغير ، فانتاب الارباك فيليباس . رفع يده مدعورا الى عينيه وحجبهما مطلقا انات خافتة . ثم عاد فاطرق راسه وتابع من جديد قدميه ، محصيا بقع الشمس ، مرددا بانتظام : « جنيته آخر وآخر ... » بعد قليل وقف مستغرقا في التفكير ، وقال بصوت خفيض مشوب بالخجل ، كما لو كان يفضي الى احد بسر : « ساحيك كيسا صغيرا احمر ، واضع من حوله شريطا ذهبيا ، وأجمع الجنيهات كلها ... »

قال من كان يقف وراءه ضاحكا :
- وماذا ستعمل بها ، يا فيليباس ؟ ..
اجفل فيليباس . غصن شفتيه . وضع يديه على فمه ، كما لو كان بذلك يكتم سره على نحو افضل ، ثم انفجر في الضحك ، مطلقا قهقهة صاخبة . لكنه لم يمن على اى حال بالالتفات ليرى من اين ياتي الصوت . اخذ من جديد يحرك ساقيه بانتظام ، وسال بلا اكترات : « انت هنا ؟ »

لم يتلق فيليباس اجابة ، ولكنه التزم الجد . خيم الصمت لحظات ، لحظات قصار للغاية ... بالتسدر الذي تحتاج اليه السماء لتغير لونها . واصطبغ اديمها بلون احمر ، احمر دافئ وعميق .

عاد يسأل ، ولكن بلهجة جادة للغاية .

— ماذا تفعل ؟

ضحك الآخر . كان شابا . وضع صندوقه خلف شجرة الزيتون التي جلس عليها فيلباس ومضى يرسم .
اجابه ضاحكا :

— تعال لترى .

— كلا ، خبرني انت ا

— حسنا ، ايها العنيد ، سأخبرك !

أغمض عينيه ونظر بانتباه الى لوحته التي لم تكتسب بعد .
اشجار زيتون ، شجرة سرو ، حائط مهدم ، ثم اشجار زيتون اخرى ،
في وسطها قبة الكنيسة ، يضاء ناصعة البياض مثل سحابة
صيف في الظهرة . قطب جبينه وقد استبد به الانشغال . كل شيء
صحيح ، الاشجار زاوية ، وحجارة الحائط تنبئ عن قتلها . لكن
كان ثمة شيء ناقص .. شيء ما .. عض شفتيه حتى كادتا تدميان .
وقد من أعماقه البعيدة صوت نسائي شبه منطفرق يقول : « لماذا
تعذب نفسك ؟ لماذا تجهدا ؟ » ثم علا صوته عنيذا غاضبا :
« لا تستطيعين ان تفهمي ... ليس باستطاعتك ذلك . كل ما أفعل
يعوزه الضوء دائما ... الضوء ... »

وقالت الفتاة شاكية : « تطلب كل ما هو مستحيل .. تطلب
كل ما هو وهم وخيال ... »

أغلق صندوقه حزينا . ظهره يؤله ورأسه ثقيل ، ولكن اصراره
على الدوام متقد . سأل نفسه : « أهو عناد هذا ؟ » وفي أعماقه
كانت الثقة موجودة . وعلى الرغم من كل المشبطات يرفض الاستسلام
كلا .. كلا ... وعاد يسأل نفسه : أهو وهم ان أجرى وراء
الضياء ؟ ومن جديد تصدى ثقته ، وطيدة مثل قلقة ، بالاجابة :
« كلا .. كلا ! »

قال فيلباس : « لماذا لا تخبرني بما تفعل ؟ »

نظر المصور شارد اللب الى شجرة الزيتون التي صورها . على
مبعدة قليلة رأى شجرة شوك كبيرة مزدهية نبتت متقنة الخطوط ،
وبدت مختالة تقف ممشوقة القوام وقد انبسطت اوراقها الذهبية ،
وعندما التفت نظرة المصور بها احس بقلبه يتخفف مما كان يمتصه
منذ بعض الوقت . تناول كراسته وقلمه وشرع يرسمها بحركات
سريعة متحررة .

قال :

— اعلم يا فيليبس اننى ارسم الآن شجرة شوك . وحذار عندما تنزل ان تكرمش اوراقى !

. آخ ، ياله من شيء مضحك ! اسمعوا ، شجرة شوك . زلزل الضحك كيانه كله . تطاوح ذراعه وساقاه فوق شجرة الزيتون . ها ... ها ... ها ... تكور مثل كرة وتدحرج نازلا . اخذ ياتى بقفزات عنيفة مرحة .

— اسمعوا ، اسمعوا ، انه يرسم شجرة شوك !
فى ذلك الوقت ، كانت تمر فى الطريق السيدة مارينا . راته يقفز ويصيح فسالته :

— ماذا حدث لك يا ولد يا فيليبس ؟ اطبق عليك الجنون ، ايها المسكين ...

كانت تساله ، ولكنها كانت كما لو كانت تتشاجر معه ايضا . السيدة مارينا امرأة صغيرة القد فى منتصف العمر . وجهها لوحته الشمس ، وشعرها فضى اللون . ولابد انك سوف تقول عنها انها عجوز لولا ان عينيها راقصتا النظرات ، عامرتان بالضياء ، حميقتا السواد .

اقبل عليها فيليبس بوجهه الساذج ، ومضى يشرح لها الامر :
— اسمعى ، اسمعى ، انه يرسم شجرة شوك !
ضحكت السيدة مارينا وقالت : الزم الهدوء حتى يرسم صوزتك انت ، ايها الاحمق ! ما دمت لا تلتزم الهدوء فحسنا يصنع اذ يرسم شجيرات شوك .

ومضت فى طريقها خفيفة الخطا .
ظل فيليبس جامدا فى مكانه برهة ، وقد استغرق فى التفكير .
نكس رأسه كما لو كان قد افقده التفكير . باحدى يديه راح يحك رقبتيه وبالأخرى اتى ببعض الحركات كما لو كان يريد ان يضرب شيئا لا يراه يلفه ويمدبه . ثم فجأة انتفض واندفع يجرى فى أعقاب السيدة مارينا ، مناديا :
— ايه .. ايه ..

توقفت ونظرت اليه دهشة . ماذا من جديد ؟
عندما لحق بها ، كان الانشغال قد زال من قساماته . وقال لها كما لو كان يفضي لها بسر وهو يشير نحو المصور : انه شيطان !
ابتسمت السيدة مارينا . ومضت فى طريقها . على انه مضى بهمس فى أعقابها كما لو كان يميظ اللثام عن إمر كان خافيا .

« انه ينظر اليك » ثم ينظر الى الورقة بحركة يده فتخرج صورتك
بحدافتها . انه عمل شيطاني ، اليس كذلك ؟ انى خائف .
— ولم تخاف ؟

عادت رأس فيليبس تثقل من جديد . حقا ، لم يخاف ؟ انتابته
الرغبة في الضحك والقفر ، ولكنه تمالك نفسه .
سئالها بلهجة مرحة :

— اين تذهبين ؟

اجابته ببساطة وهدوء ، كما لو لم يكن الذي الى جوارها عيب
السريرة ، الذي يضحك منه الجميع . لم يخطر حتى ببالها ان
تقول له وماذا يعنيك أنت ، او أن تغضبه او تنهره وتطرده ،
وذلك لان السيدة مارينا كانت قد فقدت أمها وتيمت وهي صغيرة ،
واذ رات أباهما وقد هدته وطاة الحزن لشدة المصاب الذي الهم
به . استيقظ قلبها مبكرا . تهشم وأدمى . ولهذا حملت يتم البيت
كله على كاهلها . وتولت تربية اخوتها السبعة .

في الحادية عشرة من عمرها كانت اما صغيرة تعرف كيف تتكلم
عن الخير وعن الشر ، وكيف تنهر وتلاطف ، وكيف تواسي وتدخر
من مصروف البيت ولا تنطق بكلام غير لائق . كل شيء كانت
تعرفه . وكما لو يكن ذلك كافيا لتسددينها على الأرض ، تزوجت
وانجبت بدورها ثمانية اولاد ، شقيقت في تربيتهم . مات ثلاثة
منهم وبقي لها خمسة ، ومنذ سنتين وأصغر اولادها فانجيلاكي
يعانى من الدمل الخبيث على وجنته . ولهذا فقد امتلا وجهها
بالتجاعيد من فرط الهموم ، وابيض شعرها ، لكن قلبها ايضا قد
انشرح من وقت جد مبكر ، ولذلك فما كان بالامكان أن تقسو
على أحد .

مضت تتأمل في ألم جسد فيليبس المسوخ . انسان جلف غريب
هو . وحيد في هذا العالم ، يقترب من الشيخوخة ومع ذلك لازال
عقله عقل طفل لا يكثرث به أحد ، بل ويعذبه الناس والشياطين
والضوء الباهر وظلمة الليل . بها رغبة ملحة في البكاء من أحسله
الا ان دموعها نضب . معينها منذ أمد .. كل ما في امكانها نظيرة
اشفاق ومواساة فحسب .

— انى ذاهبة ، الى فيرويا ، يا فيليبس . ذاهبة الى الأب
ستاماتي .. سأقيم صلاة بعد غد من أجل ابني . نذرت نذرا .
قال فيليبس بعزم :

- ساحضر معك . ساحضر لاسال الاب ستاماتي مما اذا كان هذا الرجل شيطاناً !

خسة واربعون عاما أمضاها الاب ستاماتي ناسكا في ناحية فيرويا . تلاحقت السنين الخمسة والأربعون كما لو كانت حبات مسبحة بطيئة متتابعة . عندما جاء أول مرة كان شابا يتدفق حيوية وطنين العالم يقد الى أسماعه جاثرا معدبا . أما الآن فقد أضحي صجوزا ، وأرجاء المكان تخربت ، ظل الناسك وحيدا ، وكان هو في فيرويا آخر من بقي .

هاهو يجلس على عتبة صومعته . ونظراته تائهة بين قمم اشجار السرو الباسقة ، تتمتع شفتاه بآيات من الكتب المقدسة مثلما كان يتفنى من قبل بأشعار الوجد والغرام . ذكريات بعيدة كل هذه الآن ، ومنطفئة ... جميلة هذه الساعة التي تغيب فيها الشمس ، وتطير الطيور في السماء بعضها في اثر بعض .

أقتربت منه السيدة مارينا دون أن تتعرف عليه . وقفت تتأمله وقد انتابتها الدهشة لتلك السعادة المرتسمة على وجهه الهرم . نادته بصوت خفيض : « ايها الاب ستاماتي » ولكنه لم يسمعها . كان يتسم للسماء ، ويفقم بين الفينة والفينة قائلا : « كونوا مثل طيور السماء .. كونوا مثلها ... »

جلست بدورها على حجر مقابل ، وأومات الى فيليباس قائلة : - صه ! صه ! انه يتحدث الى الملائكة !

انصاع فيليباس لها ، دون مناقشة . انزوى في ركن ومضى ينظر الى المعجوز باعجاب . كيف يحتمل أن يتحدث الى الملائكة دون أن يجن ! تسرى الرعدة في بدن فيليباس كلما خطرت بباله الفكرة ! يشعر بالأجنحة البيضاء الحربية ترفرف في الهواء ، ويبدأ الخوف يدب في عظامه . الأجنحة من حولهم ، أنها تلمسهم ، وتكاد تربت عليهم . انه يشعر بها ويضطرب بدنه . ولكن لو رآها بعينه ، فانه يعرف انه عندئذ لن يحتمل . يلكر السيدة مارينا فزعا ، فتزد عليه من جديد بايذاء من اصبعها أن يسكت . ومن ثم يقمض فيليباس عينيه حتى لا يرى ، فعدم الرؤية حماية له ، وظل على هذا الحال ينتظر .

تنتظر السيدة مارينا ايضا وتفكر . يوم السبت يبدأ ما نذرته . ستأخذ فانجيلاكي في حضنها وستصعد سيرا على قدميها الى كنيسة القديس ايليا . انها أبعد الكنائس والطريق اليها أشبه الطرق

وعورة . مستطع حافية القدمين ههنا الطريق الملىء بالحصى
الخشن ، وهى تعرف ان قدميها ستدميان . ولم تمر الأمر اهتماما
قط . هذا ما يجب ان يحدث كى يشفى الولد . ان الام اكلي
ثقل وعيؤه ملقى على الجميع . وستحمل هى على عاتقها ثقلا ازيد
مما يحمله الآخرون من أجل ان يخف عن ابنها وطاة الداء الذى
به . ستمضى الليلة معه فى الكنيسة تصلى وفى الصباح سيقم
الأب ستاماتى قداسا ، وهو ذلك الرجل الطاهر الذى أنتزع نفسه
من هذا العالم الدنس . وبعدئذ ستصعد بمفردها مرة كل شهر
لتوقد قناديل الكنيسة . وذلك لمدة عشر سنوات ! واذا شاء
القديس سيصنع معجزته . سيكف نزف الصديد من الجرح ،
وسيشرع الولد فى اللعب . سيجرى مثل سائر الأولاد . ولن تكون
عيناه حزنتين وتنظران من حولهما كما لو كانتا توسلان قائلتين :
أحبوني ! دمي قلبها ، وتنهدت بصوت مسموع . صبدت منها
تنهيدة مديدة ومتعبة . استدار الأب ستاماتى نحوها مبهورا :
— انت هنا ، بارك الله فيك ، ولا تتكلمين ... وفيليباس ايضا

هنا ... اهلا بكما ... اهلا ...

كان الوقت ليلا عندما عاد فيليباس الى البيت الذى يقيم فيه
المصور . وجدة عند باب الفناء وحيدا يتأمل النجوم . وقف بجواره
وأخبره بالنبا مبتهجا :

— لست شبيهاً ببطانا !

ضحك الآخر قائلا :

— منذا الذى قال لك اننى لست شبيهاً ببطانا .

— الأب ستاماتى ! كما قال لى ايضا الا أخاف ، وان ترسمنى
على الورق . وسأصعد يوم السبت مع السيدة مارينا وفالجيلاكى
الى القديس ايليا ليقم لنا الأب ستاماتى قداسا . وتعال معنا
اذا أردت !

قال كل ذلك فى نفس واحد ، وهو يقف لاهثا ، وعندما فرغ
اتفجر بضحك . فضحك المصور ايضا :

— حسنا ، اذن ، سأرسمك .

قال فيليباس :

— أريدك ان تفعل ذلك . الآن .

— الوقت ليل الآن يا فيليباس . ولا أرى جيدا ...

— تستطيع ان ترى على ضوء المصباح !

أصر على ذلك وأشبار له الى صاحبة البيت التى كانت تدعك
زجاج المصباح .

- هيا اذن ، فلتتحقق رغبتك !

نهض جدلا ، ودخل الغرفة ، أخذ ورقا وقلما ، وجلس امامه .
ومضى يدقق النظر اليه .

قالت صاحبة البيت من مطبخها :

- سيرسمك اذن ، يا فيليباس ؟

ثم جاءت الى الباب ونظرت منه .
نهرته قائلة :

- اين كنت طوال بعد الظهيرة ، اردتك ان تنقل لى ماء !

قال بتؤدة :

- كنت فى فيرويا ، عند العجوز .

وقف ينظر اليها نظرة جادة ، كما لو كان يون ما اذا كانت اهلا
ان تسمع ما سوف يستطرد الى قوله ، لكنه لم يتمالك نفسه
طويلا وقال :

- كان يتحدث الى الملائكة !

انتهره المصور قائلا :

- لا تتحرك .

كانت ريشة العمل السحري قد بدأت تستحوذ عليه . نظرة
الى الخارج ، نظرة الى الورق والى القلم والصفحة تمضى الى الامتلاء .
عاد فيليباس يشعر بالاضطراب فى جسده ، وهو واقف هيكلا
بلا حراك ، انتابته رغبة فى أن يجرى موليا الادبار ، وأن يحطم كل
شئ ، وأن يزحق ، لكنه تمالك نفسه لأنه وجد اليوم اما تسكن
من روعه . قالت له : « لم تخاف ؟ » ثم مضى العجوز فقال
له بدورهم : « لا تخف » .

بفوت بعض الوقت . تنحنى صاحبة البيت على الصورة ،
وتقول معجبة :

- صورة طبق الاصل منك !

ويساله المصور :

- هل انت مستعد ؟

ثم يناوله الورقة . ينظر اليها ... ينظر اليها مرتبكا فى البداية ،
ثم فرحا ، ثم بوحشية يندفع الى الخارج .

يجمع الدرب بصوته المجلجل : اخرجوا ايها الناس ... يوجه

فيلباس آخر هنا !
تقول صاحبة البيت :
— انه جد متقلب .

وجلس على عتبة البيت الخارجية . لقد طاش صواب المسكين
لأنه رأى صورة القديس ايليا في شبابه . رآه يقود مركبته وأربعة
جياذ ضارية . وكان الضوء باهرا حتى أفقد التعس رشده ..
وكيف بإمكانه ان يطبق كل هذه الضياء ؟

يستمتع المصور الى ذلك وهو يدخن . ينظر عاليا .. حشبد
هائل من النجوم .. هل تراها هي أيضا في هذه الساعة بآئينا ؟
ها هو أحدها يضيئ ... هل تطارد أوهاما ؟ .. كلا ... كلا ..
ليس النور وهما من الأوهام .

— كيف يستطيع ان يحتمل المسكين كل هذه الضياء ... كان
بالامكان ان يطبق العمى على عينيه ... لكنه فقد صوابه
بدلا من ذلك .

بهز رأسه لكن ذهنه يشرد بعيدا . كلا ... كلا ، ليس وهما ،
كل ما في الأمر ان الضوء يخطف الأبصار ويفقد الصواب .
مضت صاحبة البيت تقول :

— انى اتساءل ، كيف سيقوى العجز على صعود الطريق الى
هناك . تقدم به العمر الآن ... أين تلك السنين التي كان يصعد
فيها الدرب يخطر مثل عصفور . كان فتى من أسرة كريمة المحتد
في آئينا ، وكان يعرف عدة لغات ، وكان حكيما .. كما يقولون انه ..
— ماذا يقولون ؟

— يقولون انه احب .
— وماذا حدث ؟

— ماتت هي ، فأصبح هو لذلك راهبا . هذا ما يقولونه ، ولكن
من بدرى أين الحقيقة وراء كل شيء ، ولماذا نأتى هذا أو ذاك من
الأفعال ؟ .. منذ الذى بدرى ...

صعدت السيدة مارينا المنحدر ببسالة ، حافية القدمين ، حاملة
ابنها في حضنها . قدماها الآن مشخنة بالجراح وذراعاها مهدمتان ،
ولكن قلبها خفيف . بدأ تنفيذ النذر ، فليشيف ، فأنجلاكي واما
الباقى فيهمون . أوقدت القناديل بخرت نفسها ، بسطت غطاء
الأرض أمام الأيقونة وأرقدته . ثم فككت الضمادة من على الجرح .
وعندما أنجز العجز صلاة المساء أخذت زيتا دافئا مباركاً من

الفتسديل ودهنت به الموضع السقيم وتركت الجرح مفتوحا هكذا
امام عيني القديس . كي يراه ويشفق عليه . مضى الصغير يتابعها
صامتا . وفي عينيه نظرة دهشة متعبة ، كما لو كان يقول : لماذا
تفعلون كل هذا ؟

فرغ الاب ستاماتي من صلاته ، وطوى جلبابه الكهنوتي . ثم
التفت الى الصغير وقال : « عونك ، يلرب » ناوله ملبسة ، ولكنه
لم يمن حتى بان يمد يده لتناولها .
بادرت امه قائلة :

— ادخل اطياف اثينا الرعب الى قلبه .

هو الاب ستاماتي راسه ايضا . وقال بصوت هامس :

— اثينا .. اثينا .. ترى كيف حال اثينا الآن ...

كان فيليباس يقف وراءه . سمعه فافتعل ضحكة وقال كما لو
كاد يحدث نفسه :

— اثينا .. خراب .. هذا حال اثينا .

مضى المصور الشاب يتأمل الأعمدة التي تسند القبلة . ربت
عليها يديه ملاطفا وبعينيه ايضا احاطها بنظرات تكاد تكون عاشقة .
احس الى حد ما كانه مضطرب من الجمال الذي كان بانتظاره
على هذه القمة .

كانت الكنيسة الصغيرة من النمط البيزنطي ، البيزنطي
الكلاسيكي ، وكانت خطوطها عامرة بالانسجام والبهجة والعزة .
ولكن الأعمدة التي تسندها كانت مأخوذة من بقايا معبد قديم ،
والهيكل بدوره كان من حجارة وطيدة .
عاد فيليباس يقول :

— خراب هي اثينا .. ماذا تظن ؟

التفت اليه وضحك سائلا :

— هل ذهبت الى اثينا ، يا فيليباس ؟

وكيف لم يذهب . عندما طلب للتجنيد ، الى هناك ذهبوا به .
زحام ، ضجيج ، تدافع بالنكاك ، احتكاكات . احس كما لو كان
تائها في ذلك البلد الشرس . كان يذهب الى مقهى اهل جزيرته
حتى يذكر لفته . وكان يقول : « العام القادم ساعود الى الجزيرة .
اعدوا خطاباتكم كي احملها معي الى اهاليكم » .

كان ابناء الجزيرة المغتربون يضحكون ، ويسألونه : « هل تعرف
متى يكون العام القادم ، يا فيليباس ؟ » « العام القادم ؟ انه بعد

شتاء وصيف وخريف ، هذا هو العام القادم . والربيع ، يا فيليباس ، كيف نسبت الربيع ، يا فيليباس ؟ انه يذكر كل ذلك ويضحك الآن . وهل انسى الربيع ؟ ثم يلتزم الجد ويجعل بصره فيما حوله مرتابا . ينظر الى الاعمدة الرخامية . ويشير للمصور الى القديس بخوف قائلاً : وحده اتى بها الى هنا لبناء كنيسته . وبذلك الجرار كان يجلب الماء . هذا ما يقولون . تعال ، انظر . كانت ثلاث جرار حجرية عتيقة ، عتيقة جداً ، منذ أيام ان كان يقوم على هذه القمة معبد الأبولون . استدار الشباب بفتة وثبت أنظاره باصرار على الأب ستاماتى كما لو كان ينتظر اجابة على سؤال خفى .

قال المعجوز وقد بدت عيناه هادئتين وصادقتين :
— أجل ، عندما كان المستبدون يطاردون المؤمنين ، وقد نُصبت المياه في الآبار ، تمعت النساء والأطفال ، وعندما نزل القديس . وكل ليلة كان يحمل الجرار على كتفه ويجلب الماء الى المؤمنين .
— هكذا يقولون ... وعلى الدوام كانت نظرتة مباشرة ، بل وتكاد تكون صارمة .

اجاب الأب ستاماتى بصوت هادى زاهد :
— رآه المؤمنون .
اضطرب بدن فيليباس . رآه بمركبته وحياده الشئ كانت تنفخ النار من خياشيمها .

قال بصوت خفيض متوسلاً :
— فلنذهب الى الخارج . الغروب بالخارج . الغروب الوردى ، وطيور الحجل تطير على مستوى خفيض . البحر من كل جانب ، والجزر الأخرى البعيدة ، كما لو كانت تسبح في هذا الضوء الوردى . لا ريب أن الليل يقبل . ولكن طوال هذا اليوم الذى انقضى كانت الشمس قد روت الوجود الى الأعماق ... الى الأعماق حتى انها الآن وعلى الرغم من تأهبها للرحيل فان ضياءها لازالت تنسكب على كل الأرجاء ، من التراب ومن الموج ومن قلب الحجر وجدور الشجر .

بدأت تهب نسيمات قليلة وداعبت لحبة المعجوز الطويلة مثلما تداعب خيوطاً من حرير . تسلق فيليباس الى البرج وأخذ يدق الجرس وهو يقفز جدلاً كانت هبات الهواء تحمّل الاصباح عذبة ، وتحيلها الى ضياء بدورها .

تمتم الأب ستاماني في نشوة « ضياء صافية .. ضياء صافية » .
نظر اليه المصور قلقا مضطربا . تولد في أعماقه احساس يشبه
الحسد من هذه السكينة وبراءة الطفولة .

ضوء صاف . الضوء من جديد ، الضياء دائما وعذابه ...
شجرة شوك مختالة مزدهية ، لوحة نصف مكتملة ، بها اشجار
زيتون وسرو . كل شيء فيها متقن ، ولكن ثمة ما ينقصها ...
وصوت الصبية يقول : تجري وراء المستحيل . وصوت ربة البيت
يقول : كيف يحتمل المسكين كل هذه الضياء .. الضوء دائما ..
الضوء الذي يدفع الى الجنون ، الضوء المفتقد ، الذي يأتي بالسكينة ..
يريد أن يعض يديه ، أن يبكي ، ولكن فوق كل شيء يريد أن
يتكلم .

كم هو معذب هذا الشاب الوسيم ، كم الأمر ساحر واليم ،
هذا ما يفكر فيه الأب ستاماني .. كلا ، ليس الضوء وهما ، يابني .
فليكن أيمانك قويا أيها الشاب ... تريد أن تأسره في لوحاتك وعلى
عجل . انظر الى هذه الأعمدة وهذه القبة . لقد أسره الصنّاع على
النحو الذي حلموا به ، أسروا الضوء . ليس إذن وهما ... لم
تخاف ؟ يجب فحسب أن ترتوي أعماقك .. لا تكن عجولا يابني ...
وكن أكثر تواضعا .

نزل فيليبّاس من البرج وجاء يجلس الى جوارهم . بدأ عليه
الفرح . وبين الفينة والفينة يقول لنفسه : كل شيء حسن ، كل
شيء حسن .

ليس خرابا هنا ، هيه يا فيليبّاس .
- كلا ... والان معي فيليبّاس آخر . وهكذا ستكون لي صحبة
خاصة بي دائما .

نهض ضاحكا حاصيفا ، وأخرج من جيبه الرسم الذي خطه المصور له ،
بسطة بحرص وأمسك به الى جانبه هكذا مفتوحا . أخذ يتحدث
اليه باحترام ، ويريه القرى والأديرة البادية من القبة العالية .
- انظر ، هناك يا فيليبّاس ... ها هي « القلعة » و « المتولة »
و « عذراء النبع » .

كان المصور يصفى اليه ويفكر « هكذا كنت أريها النجوم أحيانا .
هذا النجم سيربوس ، وهذا النجم القطبي ، وهذا النجم كاسيوبي
... كلا ، ليس خرابا هنا ، ولكن لو كانت أيضا هي بجواري
وأسند رأسي الى حجرها لما أحسست الى هذا الحد بالبحر يضفط

على ويحاصرني مقصيا اباى من سائر الدنيا .
- هناك يافيليباس ، انظر... انظر الكنيسة الصغيرة في «حلالى»
وتلك في «بارون» .

كرر الأب ستاماتى اسمى هاتين القريتين بتؤدة . ثم شرع يحكى قصة كل منهما كما لو كان يحكى «حدثه» من «الحوادث» .
... في سالف العصر ، تزوجت احدى الأميرات وأعطيت لها الجزيرة كلها بائنة لها . كانت أميرة من الفرنجة وزوجها كان بارونا .
نكته لم يبق وقيا لها . ولم يمض عام على زواجهما حتى رحل تاركا في قلب الأميرة جرحا . مضت عيناها تذرف الدموع كلما بلغتها أخبار زوجها في مجونه ومتعه الى أن نضبت في مقتلها ينابيع الدموع . وعندئذ هدتها بصيرتها الى فكرة عملت الى تنفيذها .
بنت الأميرة لنفسها ديرا وصارت راهبة وغمرت عقيدتها حتى تقطع كل ما يربطها بالخائن من روابط مضت السنين تارة سريعة وتارة بطيئة ، كما تمضى السنين عادة . وفي ذات صباح ملا صخب الموج سماء الجزيرة لقد عاد البارون . وأمام الأميرة رجع ذليلا . حدثها عن حبه لها الذى كان له طوال هذه السنين تعويذة وعن الهموم التى سقتها اياه مغريات الحياة . واستحلفها بالله ألا تتركه وحيدا .
مضت دون أن تنبس بينت شفة تنصت اليه كما يجب أن تنصت أميرة جريحة القلب طعينة . ظلت لا تنطق بكلمة ولا تحرك ساكنا فغضب هو لأنه كان سليل المحتد وذا رجولة ، وفي سورة غضبه صاح فيها غير مالك لنفسه : لماذا لم تنتظرنى ؟ لماذا صرت راهبة ؟ لماذا ؟ . على انها لم تجبه قائلة وبحق : لأنك هجرتنى ، وكنت خائنا . كلا ، لم تجبه بذلك ، بل رفعت رأسها في أباء ونظرت اليه طويلا وقالت : انى فعلت ماحلا لى !

يقولون انه أصبح بدوره راهبا . انه غير دينه بدوره . ويقولون انه بنى لنفسه كنيسة صغيرة وترهب فيها . ويقولون انه كان كل ليلة يشعل نارا على السطح فوق برج الجرس ، وان الأميرة كانت تنظر الى هذه النار من الطرف المقابل حتى ساعة متأخرة .
قالت له : « فعلت ماحلا لى ! » ومن هنا نشأت تسمية الدبر بدير «حلالى» والكنيسة الأخرى لإزالة الناس يطلقون عليها «البارون» .

عند الفجر استيقظ الصور ، وخرج ينتظر رؤية الشمس . لم يكن يمسك بيديه لا ورقا ولا قلما الا أن ثمة احساسا بالسكينة

داخل قلبه . لم يكن يرى البحر ، لأن ضبابا كثيفا كان قد احتضن القمة وحجب الرؤية . كان ينظر مبتسما الى تلك الناحية من السماء الذي بدأ بتورد ، ومضى يفكر في الكلمات التي سوف يكتبها الى الفتاة التي كانت تشعر بالعزلة في قلب اثينا الصاخبة . « عزيزتي ، أوجد في جزيرة يونانية . ليس للزمن اعتبار هنا . وللأشواك جمال يجرح . وكل شيء ضياء . ها هو فيليباس قد اختل منطقته من وفرة الضياء ... عزيزتي ، فانجلاكي الصغير مريض ويتعذب ، وقطعت أمه الطريق الصاعد كله حافية القدمين حتى دميئا ، وأمضت الليل ساهرة تصلي . لأن ألم الانسان — كما تقول — اكليل ثقيل الحمل ، ولأنه لو لم يكن فيليباس وحيدا في هذا الوجود ، وكان له من يتألم له ، لاحتمل الضياء . تفهمين ... يا حبيبتي ، لانجيبى قائلة مثل الأميرة القديمة ... فعلت ما حلا لي ... لانجيبيني هكذا ، لأن ذلك موت . يفلت المرء من اسسار الزمن هكذا كما فعل الأب ستاماتي ... ولكن عندما جاء أول الأمر الى فيرويا لابد ان الاحساس بهذه البحر المحيط به من كل جانب كان يخنقه ... لانجيبى بذلك ، أرجوك ، احضري فحسب الى جوارى لتساعدنني على ان اصبح متواضعا ، وان ارتوي بالضياء مثل جذور الشجر وقلب الحجر ... »

حلم فتاة

کوستاس خادزیپولوس



حلم فتاة

لم تحظ كلارا بحب رجل قط . لم تكن تريد أن تصدق أنها على غاية من الدمامة ، وأن كانت تحس بالخوف من ذلك في قرارة نفسها . لكن أحدا لم يحبها قط ، وإلى رفيقاتها اللاتي كن يتباهين بگرامياتهن كان يجب أن تجلس وتنسج بدورها وتنتحل قصصا من صنع خيالها عن شبان وقعوا في هواها ذات مرة وعن آخرين لازالوا يطاردونها . تارة كانت تحكى عن نزهات عاطفية تجوس فيها الغابات مع عشيق ، وتارة أخرى عن أسفار بزوارق ومراكب عبر النهر والبحيرات مع آخر . كل هذا كان يحدث أيام الأحاد بينما كانت كلارا تلزم الدار تؤنس أمها المريضة ، أو تخرج في المساء تترىض في الأماكن الخلوية تنسم بعض الهواء وتغزل بشكل أفضل في الهواء الطلق الحلم الذي سوف تحكيه في القصد لرفيقاتها . كان صديقها الآن فتى غريبا عن الديار، اسمر البشرة ، أسود الشعر والعينين ، جاء من بلد بعيد ، بلد لا يسقط فيه الجليد أبدا ، وتمتد فيه الحقول على مدى النظر في حُسن نسيمات دافئة . وتندلى الأغصان من الشجر ، وفي الغابات تحيا طيور غريبة ، والقصور التي يرين عليها الصمت تنعكس أعمدتها وسطوحها على صفحات المياه الصفراء في الأنهار . كانت صويحاتها تتسع حدقاتهن عندما كانت كلارا تحكى ان لصديقها قصرا ، وسيأخذها إليه ليعيشا معا .

كانت كلارا تنتظر مجيئه مثلما انتظرت الآخرين الذين لم يجيء منهم أحد . وذات مساء أثناء عودتها إلى البيت عندما شعرت بخطوات مثل خطواتها وثيدة ساكنة تتبعها داخلتها الظنون عما إذا لم يكن هذا الذي خلفها هو عشيقها حقا . ولكن لما كانت الدماء قد تجمدت فجأة في عروقها ، وخفق قلبها بشدة ، فقد عجزت عن أن تستدير على عقبيها وتراه . على أنها عندما وصلت إلى باب دارها ودخلت التفت وألقت وراءها نظرة خاطفة . فرأت عينيها اللتين لمعتا تحت ضوء مصباح الطريق . صعدت الدرجات بسرعة وجرت إلى النافذة

كان يقف بلا حراك الى جوار عمود النور ، وقد تسمرت نظراته على شباكها .

لم تدق كلارا طعم النوم تلك الليلة ولا الليلة التالية ، لان خطوات ذلك الغريب تعقبها الليلة التالية أيضا . وعندما صعدت الى بيتها عاد يقف مثل نصب امام شباكها وقد رفع عينيه نحوه ، وفي الليلة الثالثة لم تعد كلارا بقادرة على أن تحتل المزيد . لبست قبعتها من جديد ، ونزلت الى الشارع ، وقد اعتزمت أن تذهب الى الغريب مباشرة ، لكنها مضت رغما عنها تسير في الطريق ، دون أن تعرف الى أين مقصدها . يلقي بها كل درب الى درب آخر ، حتى وجدت نفسها في المنتزه الكبير . عبرت كلارا الجانب الغامر بالضوء والناس ، ودلفت الى أحد الماعشي الضيقة المتعرجة مثل ثعبان التي لا يلمسها النور الا لماما فيضيح تحت ظلال الأقصان السوداء . اندست في ظلمتها ومضت قدما . ومن ورائها أحست بخطوات الغريب تتبعها بطيئة مثبدة ماضية في أعقابها . ظلت تمشي حتى وصلت الى مكان تقطعه بركة تكاد تختبئ تحت الشجر . وعندما توقفت توقفت بدورها الخطوات الى جوارها . وعندما جلست على الأريكة التي كانت هناك عند حافة الماء وجدت الغريب جانبا بالقرب منها . وعلى ضوء مصباح يتدلى من بين الشجر أمكنها أن ترى من جديد ملامحه . كان أسمر الوجه ، أسود العينين والشعر ، غزير الخصلات . كان هو .

نظرت اليه كلارا صامتة ساكنة ، كما لو كانت هارقة في حلم . أشجار واطئة نحيلة محنية ملتوية الأقصان . أشجار هزيلة ، أوراقها ممدودة مثل نصال حادة ، ملونة ، غريبة ، معروقة مجهولة ، تلمع مثل الذهب في وهج الشمس الغاربة . وأمامها تفتحت وضاعة الزرقاء الحقول الشاسعة التائهة بعيدا في الأعماق الدفيئة . وقد كانت قد قرأت في الكتب عن العيون الداخلية التي ترى أحيانا قبل العيون الخارجية ، وثبتت انظارها على الغريب وانتظرت أن يتحدث اليها ، ومضت تحلم بأن يكلمها وتتلطف الى كلامه عن بلده البعيد ، عن الطيور الغريبة التي تعيش في الغابات ، عن المياه الشاحبة الساكنة التي تنعكس على صفحاتها مثلما في مرآة القصون ناصعة البياض ، لكن الرجل الغريب لم يفتح شفتيه بكلمة ، بل مضى ينظر اليها بدوره صامتا ساكنا . هكذا ظل صامتا طوال تلك الأمسية ، وساكن صامتا أيضا طوال كل الأمسيات

اللاحقة ، عندما كانت كلارا تقوده وراها ليجلسا جنباً الى جنب على الأريكة ذاتها ، عند حافة البحيرة

لم تعد كلارا الآن تحكى شيئاً لرفيقاتها من هذه القصة . كانت تلزم الصمت ، سارحة البال طوال النهار كما لو كانت تحلم وتنتظر قدوم المساء فحسب .

وأخيراً ، ذات مساء صامت معتم مثل سائر الأمسيات ، ذات مساء فسكب فيه ضوء المصباح كعهده دائماً على وجه الرجل الغريب ، وزحف عند قدميه مثل أفعى ، وارتمى أصغر شاحباً عند حافة الماء ، ازدادت كلارا اقتراباً من الغريب ، وامسكت بيده . لم يحرك ساكناً . تركها ممسكة بها . نظر في عينيها وسأها :

— ما اسمك ؟

أخبرته كلارا باسمها .

أجابها الغريب ولازال يثبت عليها بصره قائلاً :

— لست أنت .

السمعت حدقتا كلارا .

— لست أنت . تشبهينها فحسب . تشبهينها في دماستها .

هبت كلارا أن تسحب يدها ، لكنه أمسك بها :

— ... ذات الشفتين المترهلتين ، ذات الوجنتين اليابستين

نافرتي العظام ، ذات العينين الصغيرتين المنطفأتين عديمتي اللون ،

ذات الجسد المحنى . كانت بدورها أكثر النساء دماًمة . ما من

أحد أولأها التفاتاً ، ما من أحد أكثرث بالتحدث إليها . ما من

أحد أحبها . الناس عديمو القدرة على رؤية الروح . وهي كانت

روحاً طيبة . لم تنبس ببنت كلمة . لم تطلق ضحكة واحدة في

صحبتى قط . كانت تجلس عند الطرف فحسب ، منكشمة . ومثل

نمرة في قفص مضت ترأقب في صمت الأخريات اللاتي كن يفضحكن

ممي . لم تكن هي تشبههن . لم تكن على غرارهن . لم يكن لها

مكان في هذا العالم . من أجل هذا قتلتها .

انتفضت كلارا ، لكن الغريب لم يترك يدها .

وأردف قائلاً :

— كنت أحبها ، فقتلتها . لكن لا تخشى ، فانا لا أحبك . انك

لست هي ، كما خيل الى عندما رايتك أول مرة . اعتقدت ان

روحها قد انتقلت اليك ، انها قد بعثت فيك ، انها عادت الى الحياة

معك . لكن ، كلا ، انت لست هي . انت تخافين ، أما هي فلم

تكن تخاف . أنت ترمدين ، أما هي فلم تكن ترمش . من تلقائها
فقت ضفائرها وأعطتني أياها ، في يدي أعطتني أياها ، فمقدتها
حول عنقها . شددتها وأحكمت الرباط وكلما ضاق حولها اتسعت
عينها ، عينها الضيقتان ، واطلنا على الهاوية السحيقة . وانفتحت
هناك أبواب على مصراعها . مثل لوحين من الخزف أجيد صقلهما
لمت عينها الباهتتان ، ومثل قطعتين من الياقوت تغطران دماء ،
ومضت العينان المنطقتان . تملكني اللعز فغطيت وجهها . لم
أعد أرى سوى الجسد العاري . تلاعبت أنوار صفراء ووردية
شاحبة . وغرقت هناك أضواء براقة ناصعة لأزوردية وخضراء
ومسجدية . وكما تنطفئ الألوان ذات يوم معتم في محارة ، وكما
يرتعش في اللجة القمر غير المكتمل مخترقا الأقصان من عيائه ،
هكذا كان يلعب الجسد العاري أمامي .

نظرت كلارا إلى البركة حيث كانت تشير يده . كانت المياه مظلمة ،
ولم يكن القمر باديا . عند الحافة فحسب ، هناك أمامها ، كان
وهج الصباح يرتعش ارتعاشات صفراء .
مضي الغريب قائلا :

— لماذا عارية ؟ تجردت من ثيابها عندما رأت أنني أريدها
عارية ، وألقت بنفسها على الفراش . أما أنت فلا تريدني . أنك
لأنفذين وحلك صفائرك .

مد يده نحو عنقها ، كما لو كان يريد أن يفتح صدريتها .
انتفضت كلارا من جديد .

قال لها الغريب :

— لا تجرمي . لا أريدك أنت .

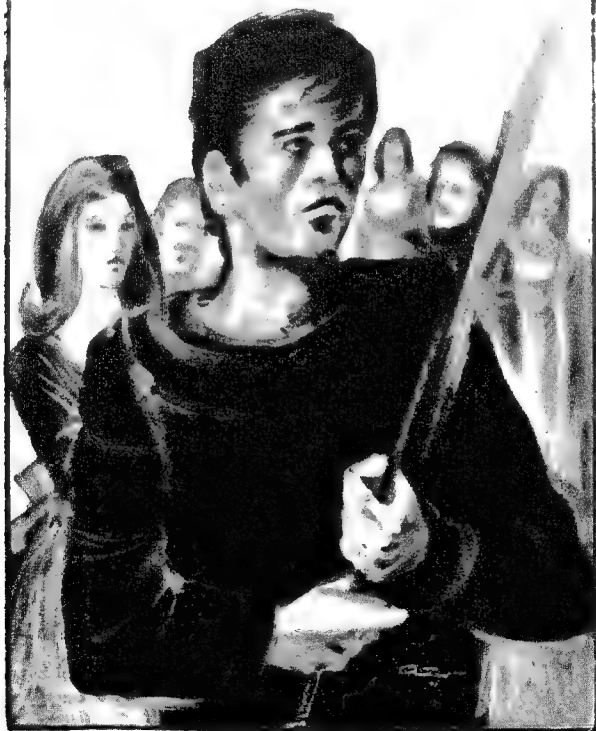
وانزل يده .

— تلك تركتني أجردها من ثيابها ، ورددت في الفراش عارية .
لم أدسه . فغطيت الجسد العاري ، فقد كان يملأني وهبسة
بيريقه . قبلت يدها فحسب وكانت تتدلى خارج النطاء . كانت
يدها جد صغيرة ولينة ، أما يدك فدميمة ، ولن أقبلها . يد خشنة
مفلطحة وديئة الخلقة .. أنك لست هي . لم تخرجي من الميساء
الصفراء التي ذهبت والقيت بها فيها حتى لا يرى أحد آخر الجسد
العاري . أنك لست هي ، تشبهيتها فحسب . أنت لا تريدني أن
تموتي ، لا تريدني أن تحبى . لا أستطيعين . أم أنك تريدني ؟
أخبريني ؟

ظل ممسكا بيدها ضاغطا عليها بشدة .
نكست كلارا وجهها . لم تكن بقادرة أن ترفع وجهها الى وجهه ،
لم تكن لتقوى على رؤية عينيه اللتين تومضان واسعتين سوداوين
باردين تحت الضوء الأصفر .
بعد هنية أحست بأنه أفرج عن يدها . وعندما جرؤت ورفعت
وجهها من جديد كان الغريب قد اختفى .
في المساء التالي ، عندما عادت كلارا الى البيت ، لم تسمع وراءها
خطواته . وعندما اطلت من الشباك لم تره واقفا أمام البيت ينتظر
لقد انتظر ولم تظهر هي . نزلت الى الشارع ودون أن تدري وجدت
نفسها في المنتزه تجلس عند حافة البحيرة . ظلت وحدها ساعات
مطرقة دون حراك . لم يحضر الغريب . ولكن عندما نهضت
لتنصرف ودلفت الى المشى الضيق المظلم خيل اليها أنها سمعت
ربما وراءها أو على مقربة منها أو من بعيد ، أو ربما من داخلها
فحسب ، اصدااء قهقهة مديدة هائجة متوحشة تمضي الى ذوال .

أنوار في أغوار المحيط

بيتروس خاريس



أفوار في أغوار المحيط

عاشت الجزيرة الصغيرة منسية من البشر أجمعين .
نسيتها أيضا جنده العدو . في الأيام الأولى للاحتلال ، جادوا إلى
مينائها . عينوا رجلين مدججين بالسلاح للحراسة ، ما لبثا بدورهما
أن انسحبا بعد قليل تاركين الجزيرة الصغيرة مسخرة في مكانها بين
البحر والسماء .

وقد كانت الجزيرة منسية حتى في السنوات الطيبات أيضا .
وفي صدد تفسير هذا العزوف عن الجزيرة ذهب أهلها يقولون
« واضح ، أننا لسنا على طريق مطروق . لسنا على خط القتال »
ولم يكن يريدون أن يفكروا في تعليل آخر . وكيف بإمكانهم أن
يفكروا في غير هذا ؟ هل جاءهم أحد ، هل رآهم أحد ، هل تعرف
بهم أحد حتى يمكن أن يكتسبوا حبه أو يسببوا نفوره ؟ سكان
الجزيرة لا يريدون على مائتي وخمسين نسمة أو ثلاثمائة على
الأكثر . لم يكن هناك سوى عمدة هو أعلى السلطات ، وعامل
تلفراف يحدث الريح والسحب ، ويخبر أهل الجزيرة بما يدور في
العالم البعيد ، وكأنه أشبه بساحر أو نبي .

كل ما تملكه الجزيرة من مراكب البحر مركبان ، كانا في السنوات
الهادئة يشكمان في المياه القريبة ، يتجران في بعض الأشياء . وفي
قليل من الأحيان كانا يبلغان ميناء بويه ، ويجلبان من هناك
بعض البضائع . لكن المركبين الآن مربوطان . وبين الحين والحين ،
وقد أصبح هذا أمرا نادرا ، كانا يبحران للصيد ويعودان إلى ميناء
الجزيرة سريعا . كان البحر قفرا مهجورا إلى حد يثير الغزع .
ما من دخان ، ما من شراع ، ولا حتى جناح طائر يرفرف على مدى
البصر ، كان هو البحر القديم ، الوغل في القدم ، البحر السابق
في وجوده على وجود البشر . وحيدا ، مترامى الأطراف ، طليقا
بالنهار ، وبالليل يتبادل مع القمر ومع الظلام أحاديث كتلك التي
جرت في الساعات الأولى للخلقة بين الأشياء الخفية وقوى
الطبيعة ، دون أن تلتقط اذن الإنسان من تلك الأحاديث كلمة ،
ومع ذلك ، فلا زال فكره يبحث لها إلى الآن عن مغزى ودلالة .

ادرك اهل الجزيرة سريعا انهم سيقتضون زمن الحرب في ضللك
معتمدين على ما تجود به ارضهم فحسب . ولو كان بإمكانهم أن
يعرفوا ماذا كان يجرى في الانحاء الأخرى من اليونان لباتوا راضين
بذلك على اى حال .

لا شك انهم كانوا سيقتضون اياما عجافا من الزاد اشياء واشياء ،
لكنهم من الجوع ما كانوا سيموتون . المرض وحده كان يفرغهم .
فحتى في ايام السلم قلما اتسع لهم الوقت كي يسمغوا مريضا في
خطر . كانت الباخرة التى تمر بالميناء تمر متأخرة ، والمركب كان
يتأخر في الابحار . كانوا يتشاورون في تكاليف العلاج الباهظة ،
ولا يقدمون على اتخاذ قرار عاجل ، فكان المريض في مرات عديدة
غير قادر ان ينجو عند وصوله الى مدينة من مدن الحضرة الكبيرة .

هكذا ظلوا في عرض البحر . بعيدا عن الحرب ، بعيدا عن
العمران ، في صحبة عامل التلغراف الذى يخبرهم من وقت لآخر
كم أضحى الانسان في الشرق والغرب وحشا ضاريا في جهات
القتال الكبيرة والصغيرة ، وفي رعاية الله الذى كان يتابع قريب
العين امور اهل الجزيرة في حياتهم الهادئة ، ومع الايام اضمحل ما
للعدة من سلطان . واصبح غير قادر - حتى لو اراد - ان يرفع
عقبرته بالصياح ، فلم تكن لديه القوة لذلك . كان بدوره ياكل نصيبه
من الخبز القليل الذى تنتجه الجزيرة ، ولم يعد يبدد قواه في
الزئيق والتهديد . وبعد قليل ، فقد عامل التلغراف سلطوته
بدوره . مغل ما اصاب اجهزته ، فافلق مكتبه ، وكف عن ان يكون
الساحر والنبي . وبذلك انقطع الخيط الوحيد الذى كان يربط
الجزيرة بالجانب الآخر من العالم ايضا . جاءت ليال ملاتها احلام
غريبة ، واقبلت ايام تولى فيها شرح الاحلام القدامى المسنون من
اهل الجزيرة ، متخذين من رموز تلك الاحلام نبوءات تشير الى
الحرب ، والمجاعة ، والى ما حل بالدنيا من نكبات .

بعد شهور كثيرة عاد الجنود الاغراب الى الظهور . مكثوا بالجزيرة
وقتا قصيرا ، وقالوا القليل - اقصد هذا ما انا به واحد من
بنى بلدتنا سار في اثرهم وكان يعرف لغتهم . امر واحد تركوا :
- ما من ضوء بالليل ! ولا حتى سيجارة مشتعلة !

في الفجر وصلوا ، وعند الغروب رحلوا . وما لبثت العنة أن
ابتلعت قاربهم الصغير .
سال اهل الجزيرة العدة الذى كان لهؤلاء الاغراب معه .

حديث قصير ، فلم يعرفوا منه شيئا ، سألوا القسيس الذي التقى عليه الأعراب تحية الصباح ، ولكن من جديد لم يعرفوا شيئا . سألوا دون جدوى سكرتير المجلس البلدى الذى مثل أمام أولئك الأعراب معلنا أن الرئيس يلزم الفراش ولكن مامن كلمة . بأفواه مقفلة جاءوا ، وبأفواه مقفلة انصرفوا . ومع ذلك كانوا قد قالوا شيئا جليا : ان الحرب لازالت قائمة فى البلاد . . ولا بد ان الأمر كان كذلك أيضا فى العالم كله ، حيثما وجدت أرض ، حيثما وجد بحر ، حيثما وجد بشر .

كانت الليالى مليئة بالأحلام ، التى تبث بالنهار الآمال فى القلوب أو تثير الذفر فيها . مضت الجزيرة تنتظر ، وتنتظر ، حتى تعودت الانتظار ، فكفت عن أن تسأل البحر الذى سمع وعرف الكثير ، ويطلق شفثيه ، فلا يدع سره يبين فى عينيه الواسعتين سواء فى حالة زرقتهما وهدوئهما ، أو فى حالة تموجهما وتحول لونهما الى الخضرة ، أو عندما تظلمان وتسودان من شدة الغضب . فى الشتاء كان النهار ينقضى سريعا ، أما الليل فلم يكن له نهاية . وحتى الأحلام لم تكن بقادرة أن تقصر من طول تلك الليالى الشتائية ، طالما لم تكن فى ديسمبر وينابيع بكافية للماء كل تلك الساعات الثقيل البطيئة . أمام الميناء ومن حوله ، كانت البيوت الصغيرة فى تجمعها أشبه بتجمهر متاهب لكل ساعة صعبة . أما الميناء فكان خاليا . بضئعة قوارب جذبت الى الشط الرملى ، الركبان مربوطان وراسيان . يضعف الريح تارة ويشتد تارة أخرى ، يتجاذب أحاديث الود والصفاء حيناً مع البحر ، ويدب الخصام بينهما حيناً آخر ، فيستمر عراك الموج مع مركبى الجزيرة . كانت الساعة تناهز العاشرة مساء ، وهو وقت متأخر بالنسبة لأهل الجزيرة ، فكانوا غارقين فى سباتهم عندما وفد اليهم الصوت المجلجل ، تلك الليلة أيقظهم جرس الكنيسة الذى مضى يدق كما لو كان يقول لهم :

— انهضوا ! اجروا ! اجروا بسرعة !

تمكن البعض من ارتداء ملابسهم ، وخرج البعض ولم يكمل لبسه . جروا جميعا ، فوجدوا شابا قد تساق الى جرس الكنيسة وأطلق كل هذا الأنداز السائب .

— أوه ، ياله من مجنون !

كان فانجيلي « عيط » الجزيرة ، لم يكن له بيت يأويه ولا ملابس

مناسبة تستره . بنام تارة هنا وتارة هناك . ويحسن عليه هذا ويعطيه ذاك كسرة خبز يقات بها فتيم أوده .
اولئك الذين وصلوا قبل غيرهم هجموا عليه ساخطين كي يتزلوه ويلقنوه أن يخلد بالليل الى النوم الهادئ . ولكن صدمهم عنه القس الذي هرول بدوره دون أن يكمل ارتداء مسوحه الكهنوتية :
- مهلككم لحظة !

وشخص يصره عاليا الى برج الاجراس ، وقال بلهجة آمرة :
- انزل ، يا فانجيلي !

اطل « العبيط » على الذين ينتظرون عند سفح البرج غاضبين .
راهم يتزايدون برهة بعد أخرى . تردد ، لكنه ما لبث أن نزل .
ابقاهم القس بيده الممدودة بعيدا :
- ماذا حدث لك ، يا فانجيلي !

- مركب ، يا جدي ، سفين ! رأيت بهيئتي ، بوضوح رأيت ،
واطلقت الإشارة حتى يراه الآخرون أيضا .
لم ينتظر الحاضرون دقيقة . تركوا فانجيلي وهرعوا الى الميناء .
وقد انضم اليهم آخرون ممن هبوا من نومهم ملحورين يرتعدون
من الخوف والبرد . وفي أعقابهم مضى القس وفانجيلي .
وفي الميناء اتسعت دائرة التجمع ، فقد تواجد هناك أهل القرية
كلهم . دارت العيون في المحاجر ، عيون أهل الجزر التي تعرف أن
تنقب في أرجاء الليل ، وتنش على الأخضر في ليل البحر الساجي .
ما من نسمة سمعت . والهدوء منبسط على البحر الذي شرعت
أمواجه تهدر في حركة فائرة ، كما لو كانت بدورها قد استيقظت
على صخب النافوس . وكان الظلام كثيفا حتى لكنت تلحظ أدنى
ومضة ضوء تشرق على أديمه . ولكن ما من شيء ظهر ، حتى
تلك الومضة لم تبد لهم ، فما بالك بسفين ، بسفين قبل أنه أضاء
كل أنواره . نظر كل منهم الى الآخر ، تأكدوا من أنهم لم يكونوا مخطئين .
ثم استشاط غضبهم من جديد . لكن فانجيلي لم يكن وحده
هذه المرة ، بل كان في صحبة القس الذي يعرف أنه يتعامل مع
« عبيط » مختل .

قال له بلهجة صارمة ، جامدة حتى لا تتم عن غضب :

- أين ترى هذا السفين !

- ما عدت أراه الآن ، يا جدي .

- وأين رأيت به !

— هناك ، يا جدي ، هناك .

أشار إلى أقوار البحر ناحية اليسار ، في الاتجاه الذي كانت تسير فيه السفن عندما كانت تمر بالجزيرة مرورا عابرا .

دقق الجميع النظر ، حاولوا أن يميزوا في الظلام شيئا ما ، لكنهم من جديد عجزوا تماما عن الرؤية . وأدرك القس أنه قد يقع مكروه في ظلمة الليل وغمره الغضب الذي اجتاحت كل هؤلاء الناس ، فسمى إلى تبرة فانجيلي وتبرير مسلكه أمامهم :

— هل رايت السفينة بوضوح ، أم خيل إليك أنك تراها ؟ هل كنت مستيقظا أم نائما ؟

— رايتها ، يا جدي . أقول لك رايتها .

— ومن أين رايتها ؟

— من الشباك الكبير في المخزن .

وقد قصد فانجيلي بذلك الشباك شباك المبنى الذي تهدم نصفه حيث يقضى هذا الشتاء في خرابته .

— وكيف رايت السفين في تلك الساعة ؟ ألم تكن نائما ؟

— لم أكن نائما ، يا جدي .

ثم خفض صوته :

— كان الجوع يمزق أحشائي . من أول أمس لم أذق طعاما .

لم يعد بحاجة إلى حماية القسيس . أخذ الناس مشى وثلاثا يستديرون ، يولون ظهورهم إلى البحر ، وينصرفون . كانوا يرجعون إلى رقادهم ليحلموا بالسفين الذي لم يروه من على الشاطئ في صحوهم .

لم يمض أسبوع آخر وامتلا الليل من جديد بصوت الجرس المجلجل . لم يغادر الجميع فراشهم ، ولكن الذين قاموا جروا ليمسكوا بفانجيلي ، وبحكموا وثاقه حتى لا يعود إلى أزماجهم من جديد . إلا أنهم عندما وصلوا إلى الكنيسة ، راوا ما لم تكن عيونهم بقادرة أن تصدقه ، وسمعوا ما لم تقو عقولهم على فهمه .

من أعلى البرج ، صاح فيهم خريستو ، وهو شاب من خيرة العمال في البلدة ، وطيد البنيان ، وزين ، مفتصد في كلامه — صاح فيهم قائلا :

— رايتنه ! رايتنه . وكان سفينا كبيرا وضاء الأنوار ، وضاء

الأنوار !

لم يكن خريستو عبيطا مختلا ، لكنه عندما ذهب إلى الميناء مع

الذين صبحوا من نومهم وجروا الى الميناء ، ثم لم ير شيئا ، حتى شعاعا واحدا لم ير في الظلمة الدامسة ، كاد يفقد صوابه .
وعلق أحد الشيوخ قائلا :

— لابد انها عرائس البحر تمر من بعيد . هيا الآن نعود الى اسرتنا وننام .

على ان خريستو ، لم يحرك ساكنا ، ولم يخفض عينيه عن البحر وعن الظلام . ولو لم يعمد اصدقائه بكياسة الى اصطحابه معهم بعد قليل ، لظل هناك ، في الظلمة الكبيرة ، حتى الصباح .
لقد رأى السفين . كان مستعدا ان يقسم على ذلك وان يضع يده في النار لقاء قسمه . في حضور الآخرين اختفى السفين من امامه .
ما عاد يرى شيئا . لم يكن بقادر ان يذكر لهم ابن وآه ، على وجه التحديد .

في الصباح ، ادرك خريستو ان القرية غيرت راياها فيه ، وصارت تنظر اليه بنظرات مختلفة عن ذي قبل . فانجيلي خيل له انه يرى فصعد الى البرج ، ومضى يذق الجرس ، مقبول هذا ، اما هو فيصعد ، ويذق الجرس بدوره ؟ ! هذا ما كان لا يطبق خريستو ان يتصوره عن نفسه طويلا ، الا انه قبل ان تمضي عشرة ايام انقلبه اففوستوس ورد اليه اعتبره ، فقد صعد بدوره الى البرج ، وذق الجرس عند منتصف الليل وفي صميم الليل الوعر . استيقظ الجميع من جديد ، ولكن قليلين هرعوا هذه المرة . وركب العناد اففوستوس فلم يغادر الشاطئ حتى الصباح . لقد رأى السفين ، ولم يكن هذا السفين يمر من بعيد ، كان قادما الى الجزيرة ، متجها الى مينائها رأسا .

لم يكن في الجزيرة عيب غير فانجيلي . لم يكن ثمة اشباح او جنيات . وكان السفين أول شبح يورق بال اهل الجزيرة ، ويقلق نومهم . فكروا ان يرقوا الميناء ، ويطردوا الأرواح الشريرة من شواطئهم . قالوا ان يلقوا ماء مقدسا في البحر ليقتل شبح ذلك السفين بعيدا ، بعيدا جدا ، الى بحار أخرى . قالوا ذلك ، ولكنهم تشاوروا في الأمر وترددوا . ما خطب هذا المركب ، وما الذي يجعلهم يرهبونه ؟

— على ظهر سفين ، سفين من سفن اسفلونا متكون مصايحه مضاعة كلها ، لو كان الوقت ليلا على مثل هذا السفين ، ان تأتي الحرية ؟

هذا ما قاله القس ، وصدق عليه الممدة ، فهذا روع الجزيرة ،
وحتى في الليالي التي كان يرق فيها جرس الكنيسة لم تهدأ
القلوب تضطرب . ولم تكن هذه الليالي بالثقيلة ، على أى حال ،
فبعد افغوستوس صعد الى البرج ثمانية عشر آخرون من شسبان
القرية وشيوخها لم يكونوا مختلين العقل ، بل على العكس كانوا على
غاية من النضاجة . وكانوا قد رأوا السفين رؤية واضحة تماما ،
وكان بإمكانهم أن يخبروك كم عدد مصايحه المضاء ، والى أين
كان اتجاهه .

مرت شهور العبودية ومن بعدها مرت سنوات . وبقيت الجزيرة
منسية من الجنود الأجانب ، بل ومن سائر البشر . ولم يكف جرس
البرج عن الرنين في ليالى الشتاء والصيف ، في ليالى الربيع
والخريف . كان السفين يظهر الأهل الجزيرة فرادى فإذا تجمعوا
اختفى من أمامهم فلا يبين ، لكنهم كانوا يعرفون انه في يوم من
الأيام أو في ليلة من الليالي سيرونه جميعا معا . سيرون السفين ،
وكانوا ينتظرون ..

عند ما يهبط الليل

بييتروس خاريس



عندما يهبط الليل

في الظلام لهما النسيان ، وما عادا يريان الخواء من حولهما .
انتظرها عند باب المكتب . تبعته دون تردد . كانت تلك هي الساعة
التي تبدأ فيها حياة أخرى في اثنا المكبة بأغلال الأسر . ينادى
في البوق بأخر الآباء التي لم يتسن للصحف نشرها ولا للمذيع
اعلانها . يستأنف الشباب ، فتية وقتيات ، عملياتهم الخطرة ،
ينتشرون في الشوارع الكبيرة والصغيرة كي يخطوا على الحوائط
أشارة أو تهديدا ، والجندى الاجنبى ايضا كان يحمل سلاحه
ويجوب الشوارع ذاتها ، متعقبا البشر الذين يضحون اشباحا ،
والذين يلعبون به كل ليلة الاعيب لا يصدقها العقل ، ويجعلونه في
الصباح يدعك عينيه دهشة . الناس ظلال هنا ، ظلال هناك ، كلهم
مسرعو الخطا . واذا تبينت اثنين معا ، رجلا وامراة ، او فتى
وفتاة ، فستجدهما يسيران جنبا الى جنب ، متلاصقين ، ولن تعرف
ايكون هذا حيا ام انه بسبب الحرب .

قالت الفتاة ، وهي ترداد التصاقا به :

- خيل لي ان الساعة متأخرة جدا . فات الوقت .
سألها :

- هل تخافين ؟

- في البيت ، لن ينتظروني قبل التاسعة . وبنت الامر ، لكن ...
وجالت بصرها في الخواء من حولها . لم يكن الشارع ، حتى
بالنهار ، أهلا بالمارة . كان حيا هادئا ، لا يزيد ارتفاع بيوته عن ثلاثة
طوابق ، النوافذ رحيبة ، والأبواب الخارجية كبيرة تتسع لاثنتين
يمبرأتها معا . توقفت الفتاة كما لو كان قد نال منها التنب ،
وراحت تستند الى الحائط المجاور لها . ادركتها ذراعه بسرعة .
أمسك بها ، وجذبها . اصوات جهورية ، ونباح كلاب ، اصوات
اجنبية ، وفدت من ناصية الشارع ، وضوء قوى راح يقترب ،
ووقع احذية ضخمة ثقيلة غاضبة تنفض عليهما . كانا على بعد
خطوتين من ركن الشارع ، خطوتين حاسمتين ، تقتضيان قرارا
قاطعا . دفعها ، ودخل بها الشارع الآخر . ثم دفعها من جديد ،

دفعة اشد ، الى باب مفتوح . وحيدا نفسيهما في فناء صغير مظلم ، وفي اغواره تبينا سلما من ثلاث درجات ، وبابا آخر ، جريا ، دقا الباب ، ونادا برجله :

- افتحوا ، بالله نستطفكم !

الحت الفتاة في الرجاء ، كان صوتها النسائي اقل اثارا للرب في الليل ، على الاخص ، في ليل مدينة مكبلة باغلال الاسر . انفتح الباب ، بدت امرأة نحيلة طويلة لم يكن بالامكان ان تجرم توا عما اذا كانت شابة ام عجوزا ، دلفا الى الداخل ، وقفا صامتين ، مهورى الانفاس ، كما لو كانا قد امضيا ساعات في الجرى . لم يكن البقاء بالخارج ممكنا . سمعت الاصوات الاجنبية ووقع الاحذية الضخمة القاضية تغد من الشارع . مضت قدما ، ثم ما لبثت ان عادت ادراجها ، اعتومت الانصراف ومع ذلك ظلت مسموعة . كان البيت ارضيا . وترتفع نوافذه عن الصيف مسافة قامة . ارهقا السمع ، وانصتا الى كل ما كان يجري .

بدالا النظرات ، ثم تلاقت عيون ثلاثتهم . لم ينسوا بكلمة . خلع الشاب قمعته ، وخطا خطوة اخرى الى الداخل . كان عليهم ان يتحاشوا التأخير . خلع معطفه ايضا ، وعلقه ، واخذ معطف الفتاة ، واوما اليهما ان يجلسا . كان من الضروري ان يبدوا اسدقاء ، كان يجب ان يصبحوا اسدقاء .

كانت الاصوات الاجنبية لاتزال خارج البيت ، في الليلة الشتائية ، التي وان لم تكن قارسة البرد او عاصفة الريح ، الا ان اولئك الاغراب جعلوا منها ليلة ضارية . تحت جنح ظلامها ، ظلام الحرب الدامس . وكان مما يزيد من ضراوتها ذلك الغضب البادئ منهم ، وتلك الاصابع الاربعة او الخمسة ، كل منها متاهب على زناد بندقية . وقد كانوا ينتشرون ويفتشون ، يمضون قدما ، ثم يعودون ادراجهم من جديد في اثر الكلب الذي كان قد اشم شيئا ، فتأخذ يغدو ويروح ، يقفز الى الامام قفزة والى الخلف قفزة . قال الشاب متوسلا :

- كوتشينة ، بسرعة ، كوتشينة .

وتصرف كما لو كان البيت بيته . وضع مقاعد حول منضدة كانت في وسط الغرفة . اخلى المنضدة مما عليها ، واجلس الفتاة قبائله ، وعندما احضرت الكوتشينة ، شرع يوزع اوراقها حتى قبل ان تستقر ربة البيت في جلستها . لم يكن من الصعب ان يفهموا .

كان من المفترض أنهم بدأوا اللعب منذ وقت طويل . ان يكون البعض مكاسبه وللبعض الآخر خسائره ، ان يكونوا متكبين على أوراقهم ، فلا يسمعون شيئا ، ولا حتى الصياح والتهديد الذي يبلا ظلام الشارع . فإذا دفعت الأحذية الثقيلة الغاضبة البسبب الخارجى ومن بعده الباب الداخلى ، وانقضت على البيت فى هجمة استطلاعية ، فقد لا يثور الشك وتعود من حيث أتت ، اذا لم تجد سوى جلسة ودية مقضاة فى لعب الورق .

مضوا يلعبون ، ولا يتفوهون بكلمة ، يلقون أوراقا متبعين نظام لعبة يعرفها الثلاثة ، ويجهلها الثلاثة ، ولم يرتكب احدهم خطأ واحدا ، او يأتى هنة واحدة ، كما لو كانوا يرجون نفعا كبيرا من لعبهم . ومع ذلك ، فقد كان لا زال خطر انفضاح سرهم قائما . بماذا يلعبون ؟ أين النقود ؟ أين الفيشيات ؟ لم يكن بالبيت سوى هذه الكوتشينة ، ولم تكن من الصنف الذى يلعب به القمار ، كانت من الصنف المزوق القديم ، استهلكت وعلا أوراقها الأصفرار . ولا شيء غير ذلك .

طلب الشبـاب :

— قليل من حبات الفاصوليا ، او اللوبيا ، او أى شيء عندكم . جلبت سيدة البيت طبقا ضحلا به حبات من الفول الجاف ، وبدأوا اللعب من جديد . اقتسموا حبات الفول . وضع كل منهم ثلاث أو أربع حبات وسط المنضدة . صار الجو أكثر أمانا ، لكن اللعب لم يدم طويلا . هذا الشارع ، وسمعت الأصوات بعد قليل من بعيد . ومضى الليل فى طريقه قدما بخطا صامتة . كانوا قد نجوا . نهض الشاب من مقعده . كان عليه أن يقدم ايضا :

— يورغوس رئيس طالب بكلية الطب .

وهم أن يعرفها بالفتاة . لكن حنكة سيدة البيت التى صارت بادية الآن بجلاء أكبر فى تجاعيد وجهها ، منعتة عن ذلك .

— خل هنك . انى أفهم . تعطلت عن الأوبة الى بيتها .

— ربما لا تفهمين ، ربما لا تصوريين ، ما الذى حدث لنا على وجه الدقة .

كان الثلاثة قد هداوا الآن . وكانوا أشبه بممثلين فرغوا من أداء مشهد صامت صعب .

أردف الشاب يقول :

— نزهة يسيرة ، كدنا ندفع ثمنها غالبا جدا . كان التنب قد

نال من هيلينى ، فهمت أن تستند الى الحائط عند ناصية الشارع،
ظنوا انسا من اولئك الذين تكتب على الجدران ، فطاردونا . من
حسن الحظ انهم لم يطلقوا النار علينا ثوا .
نظرت الفتاة الى ساعتيها :

— العاشرة الا ربعا . بإمكاننا ان نعود الى البيت قبل حلول ميعاد
حظر التجول .

ينتهى التجول فى الحادية عشرة . لازال امامهما وقت . ولكن
من كان متاكدا أن الخروج آمن ، ومن الذى يمكن أن يقول أن
الكلب الذى اشته شيئا لا يحوم حول البيت منتظرا ؟
كان الشاب قد استرد هدوءه كله ، وتذكر أن عليه أن يبدو
سييدا ، قال :

— فلنشكر السيدة أولا ، وبعد ذلك سوف نرى .

وقالت هيلينى :

— حقا ، سامحينا . دخلنا بيتك على نحو جد مفاجئ ، مثل
لصوص ، مثل قتلة مطاردين .

— اجلسا من فضلكما ، ساحضر لكما كوبا من الماء ، كي
تستردا انفاسكما ...

القت هيلينى بنفسها على اريكة لم يكن يبدو عليها قوة الاحتمال.
ظل يورغوس واقفا . جاس فى أرجاء المكان بخطوات صغيرة ،
ملقيا نظرات سريعة فى كل الاتجاه ، محاولا أن يتبين أى بيت هذا
الذى وجدا فيه ملاذا . رأى غرفتين يتألف منهما البيت فضلا عن
المطبخ . غرفة الجلوس ، حيث أديا منذ هنية مشهدهم التمثيلى،
والى جوارها غرفة للنوم ، لم يكن يبدو منها الكثير بسبب بابها
الموارب . لم يكن المكان ينم عن فقر ولا عن ثراء . أثاث قديم ،
منهك ، ربما كان منذ عدة سنوات مضت جهاز صبية على أهبة
الزواج ، تعد ما سوف يكون أثاث بيتها المرتقب ، وتنتظر عريسا
لم يأت ، وسعادة لم تتحقق . منضدة ، وبضعة كراس ، ومقعد
كبير وأريكة صغيرة . وصورتان على الحائطين المواجهين يبين منهما
على وجه التحديد العهد الذى يرجع إليه البيت وينتمى له أهله.
كانتا صورتين للأب والأم فى ذروة حياتهما . رجل مسن ذو ياقة
منشأة وشارب ضخ ، وسيدة ذات شعر ابيض غارقة فى ثوب
مرتفع العنق . شخصان من جيل الحرب البلقانية ، تسود السكنية
وجهيهما ، وتبدو الثقة فى نظراتهما ، وتغلف هيتيهما تلك البساطة

التي يبعثها في النفس دوام الثراء واطراد النعمة .
لم يتسن ليورغوس أن يرى أكثر من ذلك . لكنه لمع توا
البساطة ذاتها في حركات سيدة البيت وخطواتها ، وقد عادت تحمل
بين يديها صينية ، وقدمت لهما لوزا ومستكة وماء .
هرع يورغوس لمساعدتها قائلا :

— شعبها هنا ، من فضلك .
وأخلى لها جانبا من المنضدة التي كانت لانزال مغطاة بورق
اللعب .

أقربت هيليني بدورها ، أكلا لوزا ومستكة وشربا ماء ، ولكنهما
لم يجدا من الوقت فسحة لعبا عن امتناهما . عادت الأصوات
إلى الشارع ، وعادت الأحذية الثقيلة ، ومن جديد علا النباح .
في هذه المرة ، زاد عدد الأحذية الثقيلة ، وزاد غضبها اشتدادا ،
كما سمعت خطوات أناس يجرون ، ثم ثلاث أو أربع طلقات رصاص .
تبادل ثلاثهم نظرات خائفة . خطا الشاب نحو النافذة ، ومد
يده ليزيح الستار .

منعته سيدة البيت قائلة :

— بالله ، لا تفعل ذلك !

ظلوا واقفين متسمرين في أماكنهم ، وكلهم آذان صاغية . ترى
ما الذي حدث ؟ من الذين يطاردون ؟ خلا الشارع من الأصوات
مرة أخرى . لكن ما من أحد أطل من باب أو من نافذة يسأل ،
ويستوضح ، كما لو لم يكن قد حدث شيء ، كما لو لم يكونوا
قد سمعوا شيئا ، ولا حتى صرخة أطلقت .

عندما انقضت موجة الرعب هذه بدورها ، نظرت الفتاة إلى
ساعتها ، وسالت بعينين واسعتين ملؤهما الهلع :

— والآن ؟ ...

كانت الساعة الحادية عشرة الأربعا .

— كيف سأعود إلى البيت ؟ كيف .. آه ، يا إلهي ، أمي ستجن ..
فقدت هدوءها ، راحت تجول في خطوات مضطربة ، تمضي إلى
باب الخروج ، تقف ، تتنحى عنه . مدت يدها إلى ذراع يورغوس ،
نظرت إلى ساعته ، زادت ياسا :

— الآن عشر !

لم ينبس الشاب ببنت شفة . بعد قليل اتخذ قراره ، كى يضع
حدا لقلق هيليني ، سأل :

— الا يوجد تليفون قريبا من هنا ، بالطابق العلوى ، او بيت مجاور ؟

زادت الاجابة من حالة الياس ، ولكنها عجلت من القرار . صوب الشاب نظراته الى عيني سيدة البيت ، كان يستعطفها دون أن يقول كلمة ، دون اصرار ، راح يتطلع اليها وينتظر . اما هيلينى فكانت على وشك الانهيار . للمت ما كانت قد تركته من حاجياتها على القعد وصباح :
— سادرك اليهباد !

امسكت بها سيده البيت :

— لم يعد بإمكانك الانصراف . اجلس . اهدئي . ستقتضيان الليلة هنا .

بسطت ذراعها على كتف الفتاة ، وربتت عليها كما لو كانت اما ، او اخنا اكبر . ودون أن يكون صوتها صوت امرأة عجوز ، افعم بنبرة نصيح وحنين .
تابع الشاب الحديث ، لم يكن يعرف ماذا يقول . لم يكن يجزؤ . كان قد استبقاها طويلا فى نزعة هذه الامية ، فاحس شعورا بالذنب يعذبه .

وفد صوت مصدرا حكما نهائيا . ساعة حائط بلالدور العلوى تدق معلنة الوقت ، دقة بعد دقة ، بوضوح ، وحزم . الحادية عشرة . اغلقت الابواب كلها ، عاد الجميع الى بيوتهم . دخلت المديسة ، شوارعها ، ميادينها ، محالها ، محطاتها ، كلها أضحت من الناس خالية .

احتاج الأمر أن يفوت وقت طويل كي تدرك هيلينى انها حبيسة البيت المجهول . كان عليها أن تصبر ، صبرا كثيرا طوال ساعات قليلة ، عندما يأتى الصباح ، فى السادسة ، سوف يفتح الباب ، سوف تجرى الى بيتها ، وتلقى بنفسها فى أحضان امها ، لن يوجه اليها احد ادنى لائمة ، سوف يسرون لعودتها الى جوارهم . ولن تخبرهم بسائر الامور الأخرى الا بعد أن تبعدها الأم عن حضنها ، وتكفكف الدموع . ولكن ترى هل يستحيل الأم غيابها حتى الصباح ؟ لا بد أن النواج قد بدأ فى بيتها منذ التاسعة ، او التاسعة والنصف ، او العاشرة . فكيف ستطول المعاناة حتى السادسة صباحا ؟ . هل سيحتمل القلب العجوز ؟ ستقضى الأم ساعات تذرف دموعا وتطلق آهات ، ستمضى الليلة كلها فى نحيب ونواح .

قالت لها ميسدة البيت :
- تعالى الآن ، لتصلحي من هندامك .
واصلحيتها الى الخرفة المجاورة .

راح يورغوس يجوب غرفة الجلوس الصغيرة . كان يرى خطاه
ويفكر في اهل بيته أيضا ، لكن عقله كان يعود الى مسؤوليته من
هيلينى ، فلم يكن يسمع تنهات امه هو ، بعد قليل صفا ذهنه .
في النهاية ، آخرون يلقون متاعب اسوأ بكثير في هذه الآونة ، بل
وآخرون يفقدون حياتهم أيضا . انها ليلة واحدة وستنقضى .
أجل ، ستنقضى . ولكن كيف ستنقضى ؟ بالبيت غرفتان ، وهم
ثلاثة . وليس هناك سوى سرير واحد . ومن ثم ، مع من سيقضى
الليلة ؟ سيدة البيت ، هل هى متزوجة ، أرملة ، مطلقة ، آتية ؟
حاول أن يستنتج حالتها . كانت فارعة الطول نحيلة . بشعر رأسها
خصلات سوداء قليلة ، وتكسو وجهها تجاعيد كثيرة . فى لحظات
المعاانة حدق فى عينها . أجل ، أجل ، هاتان المينان ، زرقاوان ،
متعبتان ، مثقلتان . ربما كانت هاتان المينان جميلتين فى
وقت من الاوقات . لكن انفها كان الآن ، ومنذ عشر سنوات
وعشرين سنة . وخمسين سنة - انفها كان ضخما ، وواسعا كان أيضا
فهما دون شفتين تقريبا . يحد الفم خطان باهتا الحمرة ، وما كان
بالامكان اعتباره نفرا نساءيا دافئا . جمع كل هذه التفاصيل ، والف
بينهما سريعا . وضعها امامه كما يلتقط المصـبـور الخطوط الأولى
بورتريه . وانتابه الخوف . ترى ، هل هى على ماخطر بباله ؟ لم يجرؤ
أن ينطق بالكلمة ، لم يكن بقادر أن يقص عنه الفكرة . أواه ، يا الهى !
أين قدر لهما أن يقعا ! وكيف سيقضيان ليلتهما هناك ، فى صحبتها ،
بالقرب من هذه المرأة

عادت هيلينى وحدها ، كانت أكثر هدوءا ، وبدا فى عينها أن
لديها ما تريد أن تكشف عن سره . عاجلها يورغوس قائلا :

- فهمت .

- ماذا فهمت ؟

- انها عانس .

- أجل ، مسكينة . لكن كيف عرفت ذلك ؟

ظلت عانسا ، تعيش على معاشها من والدها ، ولا تخطو خطوة
خارج البيت . ولابد انها كابدت شدة الحرمان كثيرا ، كى تقرر
ايواء رجل ليلة بأكملها تحت سقف بيتها . ولكن كانت هناك

الفتاة ، مما كان يجعل القرار اشد صعوبة . كيف ستتقضي
الفتاة ليلتها ؟ معها ، أم معه ؟ في غرفة نومها أم في غرفة الجلوس ؟
ولكن كيف يمكن ايضا ان يمضي عاشقان شابان في غرفة جلوسها
الليلة بطولها ، الليلة بساعاتها كلها ؟

عندما ظهرت عند الباب محملة ، كانت مستغرقة في التفكير .
عائنتها هيلين في بسط غطاء المنضدة ، وفي وضع صحاف وملاعق
لثلاثة أشخاص ، ليتناولوا عشاء خفيفا .
قالت متحرجة :

— هذا هو الموجود .

قليل من العيش . وصحنان من البقول ، وسمكة مقعدة . ولا
شيء غير ذلك . اقتسموا الطعام ، واقتسموا ايضا الصمت الذي
خيم عليهم ، الصمت الذي تجلبه الأفكار الدائرة بخلدكم ذاتها ،
والشكوك ذاتها ايضا .

فرغوا من العشاء سريعا . ونهضوا من المائدة .
لم يكن يورغوس بقادر ان يواصل الصمت . اراد ان يقول شيئا :
— ضايقناك كثيرا .

اجابت سيادة البيت بصوت جاف :

— آوه ، لا شيء . بشر نحن ...

ثم عاود يورغوس السؤال بعد قليل بلهجة تنضح بالاحترام ،
بالاحترام الذي تظهره لمن هم اكبر منا ، للمسنين :
— هل استطيع ان ادخن ؟

جرحها هذا السؤال في اعماقها . نظرت الى عينيه طويلا ،
بصرامة قد تكون انعكاسات لآلم غير محتمل . افصحت له عن فهمها
انه يتحدث الآن الى عانس .

قالت له بصوت خافت :

— تستطيع ...

منذ تلك اللحظة اضحت الليلة اشد صعوبة . البيت اقتسموه
كما ارثات صاحبه . قالت لهما تحية المساء ، ودخلت غرفة نومها .
اغلقت الباب . لكنها لم توصده . ادركت انه ليس بإمكانها ان
تفرق بينهما ، فتركتهما في غرفة الجلوس ، بايماة ذات مغزى
حسيفة . وضعت وسادة وغطاء على الأريكة ، ووضعت وسادة
اخرى وغطاء آخر على المقعد الكبير . لم يكن في متناولها ان
تفعل غير ذلك .

وبدأت في غرفة الجلوس الصغيرة الساعات التي بدلا من أن يسودها الصمت . أصبحت أغنية حب ، بدأ الليل الآخر الذي نسي المبودية ، ومعاناة البيتين اللذين ينوح أهلها الآن ، والمرأة التي لم تعرف الحب ولكنها تسمعه على مقربة منها ، همس ، ويتهدد ولا يعمل حسابا للخطر والرعب والموت .
رأى الشابان الوساذتين والفظائين ، ولكن لم يكن بإمكانهما أن يحترما الإباءة الحصيفة . رقدا على الأريكة وبقيا متلاصقين .
بعد ساعة ونصف فحسب ، سألت هيليني :

— هل تعتقد أنها تسمعنا ؟

وحاولت هيليني أن تصيخ السمع في السكون لكل جلبية ، ولكل حركة . حاولت كثيرا أن تسمع شيئا .. ثم همست تقول من جديد :

— ربما نسمعتنا .

وافقها يورغوس قائلا :

— ربما ...

لكنة لم يرخ ذراعيه عن هيليني ، ولم يتركها تخرج من حضنه . بعد قليل ، عادت هيليني تقلق :

— ليس هكذا لائقا .

همس يورغوس بدوره قائلا :

— ليس لائقا .

ولكنهما لم يحركا ساكنا . لم يبديا ندما . بقيا هناك ، بقيا معا ، حتى سمعت من الطابق العلوي ، الساعة تدق ست دقائق . وعلى مقربة منهما ، امرأة تسمع أغنية حبهما ، ويستمر جسدها . تسمع ، وتدفن رأسها تحت الأغطية ، تسمع ولا تريد للأغنية أن تنتهي ، تسمع وربما كانت تبكي ...

في الخارج ، أخذ النهار يشرق . ولكن احتياطات الاظلام المفروضة لم تكن تترك الضوء يدخل .

نهضا . ربما الأريكة ، احداث في غطاء المقعد مايوحى باستعمالها . شرعا يتجاوزان أطراف الحديث ، ويتجولان في أرجاء الغرفة . لم تتأخر سيدة البيت عن الظهور . وجدتهما يتعجلان الانصراف لم تشأ أن تعوقهما . خجلت أن ترفع نظراتها الى عيبيسونهما . رجتهما فحسب الا ينصرفا معا .

— اغسلا وجهيكما ، ثم فليخرج أحدهما وحده أولا ثم فليلبسه

الثاني بعد قليل . لا تعرفان ما اذا كان ثمة من يراقب المكان في الخارج .

لم تكن تقول الصدق . يعرف الجيران انها تمضي لياليها وحيدة ، ولذلك ما كانت تريد ان يروا الشابين يخرجان معا من عندها . انصرف يورغوس أولا . شكر سيدة البيت بحرارة ، لكنه لم يستطع بدورها ان ينظر طويلا الى عينيها .
قال لهيليني :

— سانتظرك عند اول محطة .

وعندما انصرفت هيليني بدورها بعد قليل ، عانت سيدة البيت ، وقبلتها ، قائلة دون ان تتبين الجرح الذي تشقه :

— لن انسى ابدا هذه الغرفة ، ولا هذه الليلة ...

في الخارج ، بدأ النهار بهدوء ونظام ، مثل كل ايام العبودية ، التي لم تكن تبين شيئا من كل ما كان يحدث بالليل ، تحت جنح الظلام ، من مطاردات وحشية للبشر . وعندما وصلت هيليني الى يورغوس كان يمر اول ترام صباحي . بقفزة واحدة ركباه ، وجدا نفسيهما على الأرض ، في الدنيا .

قال لها يورغوس :

— يا لهول ماجرى لنا !

وانفجر في الضحك .

قالت هيليني بدورها :

— صدقت ، يا لهول ماجرى لنا !

ولكنها بدت حزينة ، حزينة جدا .

وبعد هنيهة ، هممت بحزن أشبه :

— لم تخبرنا حتى عن اسمها ...

رسالة من غريق

فاسيلى روتاس



رسالة من غريق

نزل الإله الى الأرض ، اله البحر . هيج البحر ، وبث الرب
في البلاد ليل نهار . انفكت الرياح من عقابها ، ومضت تطارد السفن
والناس والدواب . تقتلع الشجر ، وتتوغل داخل البيوت
مزمجرة . ثم أخذت سحب الشمال السوداء تتبدد . ولم تعد
الأمواج تتلاطم وتلول الا عندما يسط الليل جناحيه مثل طائر
النورس .

وقد وجد أول الناس الذين خرجوا الى الشاطئ في الفجر الفريق
متقى بين الأغصان والطحالب . كانت الأمواج قد تقيأت ، ولا زالت
تتجشأ وتلفظ رغوّة بيضاء . كان الفريق يرقد غائباً عن الوعي
يحتضن الثغابات من تحته وقد تحلل جسيده وتشوّه من فرط
ما لقيه من أهوال .

ان غريقاً على الشاطئ عند قرية صغيرة يثير بين الناس اضطراباً
كبيراً ، فسرعان ما يعلم الجميع بالنبا ، فيلتفون حول الجثة يحدهم
الفضول ، ويخيم عليهم الحزن واحساس بالشاركة في المصائب .
كان الفريق رجلاً في منتصف العمر لكن أمواج البحر كانت قد
تقاذفته طويلاً ، وألقت به خارجاً بعد أن افسدت هيئته ، فلم يعد
من السهل تبين شخصيته ، وشطح خيال القرويين بعيداً للتعرف
على شكل الفريق وعمره وعلاقاته الاجتماعية .

ولما كان الحزن معشياً في القلوب - كل أصابه دمار أو جوع
بسبب الحرب التي لم تترك بيتاً لم تشعل النار في أعماقه ، بل
مضت تهدد بكوارث افطع - لما كان الحزن معشياً في القلوب ، فقد
رأت عيون الحاضرين من خلال خيالاتها السوداء الجثة المجهولة
التي استقرت عليها الأنظار - رأتها بين الطحالب منتفخة مفككة
الأوصال ، لا تحكم لها على حركاتها مثل سكير عرييد بلا حياة -
رأتها كما لو كانت تلعن الحياة ، وتصب أيضاً غضبها على السماء
ناصعة الزرقة التي احتضنتها شمس ابريل الوضاعة تظليها بالذهب
البراق - رأتها تسب البحر الذي تهاوى على الشاطئ متهاكاً
مغشياً عليه ، والنسمات النازلة من القمم الصخرية والسفوح

الخضراء مظرة بأريج السعتر والبنفسج البري ، وتسبب أيضا الطيور المفردة في الفضاء الرائق ، والناس الذين يتفرون فيه بوجوههم المتكية عليه وعيونهم القلقة الخائفة من حوله .
وفي النهاية جاء الحارس . أفسح له الجميع الطريق فمضى متقدما .
تفحص الجثة بنظرات حذرة أول الأمر ، من الزاكن المتكفئة الى الساقين الرخوتين . ثم امر أن يلقبوا على جانبها الآخر ، فبدت سترة الفريق تشبه رداء عسكريا .
قال الحارس : « كان جنديا ، اذن . »

تهدد الرجال ، أما النسوة الواقفات من خلفهم فقد نددت منهن زفرات حارة .

أصدر الحارس امره من جديد : « فتشوا جيوبه » .
شرع القرويان اللدان جردا على أن يمدا أيديهم الى الفريق - شرعا يفكان أذراره ويدسان أيديهما في جيوبه ، ويخرجان منها أشياء بناولانها للحارس .

قال أحدهما ، وهو يفك ساعة من معصم الفريق : « هاهي ساعته »
عاودت النسوة النحيب ، لكن الرجال والصبيان ضحكوا لأن ذلك الذي فك الساعة - قبل أن يدسها في يد الحارس المدودة - وضعها على أذنه ليرى ما اذا كانت لا تزال تعمل .
سأل احد القرويين محب المزاح : « كم الوقت حتى نضبط ساعاتنا ؟ »

ولقيت مزحته في النفوس صدى ، فضج الحاضرون بالضحك .
لكن الكتابة ما لبثت أن عادت تسيطر خائفة الضحك في الحلق ، كما خنق البحر الرجل المسجى على الأرض وخلفه غير قادر أن يمنع أيدي القرويين الخشنة من أن تمتد الى جيوبه .

وسرعان ما امتلأت راحتا الحارس بالأشياء ، الساعة ، ثم مطواة ، ومنديل ، وورقة مطوية ، وقلم ، ومشط ، وحافظة منتفخة مثل صاحبها ، تهرات ثيابها ، ولاحت منها مابداخلها من أوراق وتقود ، وأخيرا لفافة من الخطابات .

وضع الحارس هذه الأشياء في جعبة فارغة معلقة الى جنبه ، واستبقى الأوراق وحدها حتى يفحصها ، بحثا عن بطاقة الفريق .
ثم قلب الخطابات المستلة وقرأ فيها بصوت عال : « عزيزي هيلينيتسا »
عاد صاحب النكات يقول صائحا : « خطاب الى حبيبتة ! »
وضحك الصبيان .

فرض الحارس رسالة أخرى ، وقرا من جديد : « عزيزتي هيلينيتسا .. »
ثم انتقل الى رسالة ثالثة ورابعة فكانت كلها تبدأ : « عزيزتي هيلينيتسا .. »

ابتداه البعض قائلا : « اقرا ما هو مكتوب بعد ذلك ... »
امسك الحارس بالخطاب الأخير ليقراه ، وقد استبد الفضول به كما استبد بالجميع . كان كل من الحاضرين قد رسم لنفسه في خضم هذا الغموض المحوط باسم هيلينيتسا صورة متميزة لها . تصورها البعض عشيقا ، وتصورها البعض زوجة شرعية ، تصورها البعض ضخمة بدنية وتصورها البعض صغيرة نحيلة . كل منهم تصورها من خلال مزاجه الخاص وتجربته الخاصة .
قرا الحارس حتى آخر كلمة وبصوت عال الخطاب التالي :

« عزيزتي هيلينيتسا ، كتبت اليك خطابات عديدة ، يا ابنتي ، كل يوم اكتب اليك دون أن ارسل شيئا مما كتبت . لم يتسن لي ذلك وقد فقدت كل امل في ارسالها اليك الآن لأنني وقعت في الأسر . ولكن هانذا اعاود الكتابة اليك وغم ذلك ، وعلى آخر ورقة معي ، فربما وجدت فرصة ما . وضعونا الآن على سفينة ستحملنا الى بلادهم . هكذا يقول كثيرون ، لكن ما من أحد يعرف الى أين نبحر على وجه اليقين . تأتي الطائرات تباعا . تحلق فوقنا ، وتمطرنا وابلا من قذائفها . قلوبنا مضطربة على الدوام ، فبين لحظة وأخرى سيبتلعنا اليم ونفارق ، انا نرى اليابسة تباعد رويدا رويدا وتختفي من أمام عيوننا . ابنتي هيلينيتسا فكرى معك ، وقد تركت في البيت وحدك ، ترعين كام اخوتك ولازلت صغيرة . منذ اليوم الذي تلقيت خطابك المريب الذي ابلغني فيه وفاة أمك ، أصبحت أفكر فيك ليل نهار وأبكي . كنا قد عدنا توا من المعركة ، وكنت لا أزال حيا ولم يمسنى سوء . كنت أكل لقمنى راضيا عندما جاء ، يا ابنتي ، خطابك ينمى الى النبا الأسود الذي جرحني ، وأدمى فؤادي . فضلت أن يكون الموت قد اختطفني أنا - مثلما اختطف الكثيرين من رفاقنا وأبناء بلدنا - بدلا من أن يختطف أمك . تمنيت أن يكون الموت من نصيبي أنا ، فقد كانت لازمة لك ولاخوتك الذين لازالوا صغارا . لعمري كيف سيعيشون من بعدها . كتبت لي ، يا ابنتي ، أن أشد عزمي فانفطر قلبي ، لأنك تطلبين مني - أنت الفتاة الصغيرة العزلاء - أن أتشجع وأعمرى . أى

بنيتى ارمى اخسوتك ، وكونى لهم اما رعوما . لا تمدى يدك
 مستجديا الى احد على حدة ، بل اطلبى العون من القرية جماعة .
 لاثقى بابنيتى بالقسيس ولا بالمعدة ، ولا تركنى الى احد منهما
 منفردا طالبة النجدة ، بل عليك أن تقفى يا ابنتى وسط الجميع فى
 الكنيسة واصرخى بذلك .. اجمعى اخوتك الصغار كلهم من
 حولك ، وصيحوا جميعا قائلين : يا اهل البلد ، ماتت امنا ، وابونا
 حمل سلاحه ومضى الى ساحة القتال . نحن خمسة من اليتام .
 على القرية أن ترعانا ، فنحن منها ، وها نحن بينكم . لا أجد فى
 غمرة يامى سواك بابنيتى ، يا من اثبت أنك ناضجة العقل رحيمة
 القلب ، أنت الدعامة الوحيدة التى أئسد اليها قؤادى ، أنت النور
 الوحيد فى الظلمة التى تحيط بى . حاربى يا ابنتى وكافحى من أجل
 اخوتك . فكرى فيهم ولا تفكرى فى نفسك . لا تتركى السررات
 والأفراح تستهويك ، فتنترهك من مسؤولياتك ، ولا تشتهى أن
 تتجملى وتزنى فتعرضين عن اخوتك الذين أصبحت حياتهم بين
 يديك . وقع على عاتقك عبئا ثقيلا ، يا عصفورتى ، يا هيلينيتسا
 العزيزة . على كاهلك الرقيق مسؤوليات الأم والأب معا . قدرى
 هذه المسؤوليات ، يامسكينتى واشجعى بها . اصمدى ، وسددى
 هذا الدين بيقين وعزم حتى تلتقى على خير . لا أريد أن أعود ،
 بابنيتى ، فأجذكم مشتهين ، بجللكم العار والخجل ! أما انا فحيث
 أوجد هنا ليس لى من أمل يشد عزمى على الجهاد سواكم . كل
 نبض فى وكل نفس لى يستمد قوته منك ، يا عصفورتى العزيزة ،
 يا من ستكافحين وتمانين وسط هذه الكوارث من أجل الخير
 والفلاح . وعندما سيلتئم شملنا فرحين ... »

هنا توقفت القراءة ، لأن الكلام لم يكن له بقية . رفع الحارس
 بصره الى الواقفين ، فكانوا ييكون جميعا . تعالى النشيج من حلق
 النساء . اما الرجال فنكسوا الرؤوس كما لو كانوا يخفون خجلهم .
 حتى الأطفال وقفوا واجمين .

صاح احد الحاضرين : « هذا الفريق منا ، هيلينيتسا هذه
 واخوتها اولادنا . يجب أن تتولى نحن رعايتهم . »
 صدق الجميع على كلامه صائحين : « أجل ، أجل ، علينا أن
 نبحت عنهم ونجدهم ! »

وبدأت مناقشات ومداولات بين كل أولئك الذين تجمعوا حول
 الفريق . علا صوت الجميع ، وأدلى كل برأى . كيف سيعثرون

على قرية الفريق وبيته ، كيف سيمعثون باناس مخصصين وعلى نفقة بلدتهم ، يشدون الترحال ، ويجوبون اليونان كلها اذا اقتضى الامر ذلك ليجدوا تلك المدعوة هيلينيتسا ليمدوا لها يد العون . واضاف آخر : « نأخذ هؤلاء الأولاد وتحضرهم الى بلدتنا هذ ونتبناهم »

وصاح آخر : « هذه الخطابات نحافظ عليها جيدا ، لنحملها كلها الى الفتاة » .

وقال آخر : « نشرها في الصحف ليقراها كل الناس ... » وهكذا بانفعال وتأثر وحماس عام لتنفيذ وصايا الرجل الفريق : امضى اهل القرية يومهم ذاك ، لكن لم يعرف ماذا فعلوا ، كيف انتهت هذه الحكاية ، ما اذا كانت هذه القرية قد وضعت موضع التنفيذ اندفاعها الاول الذى اثارته فيها رسالة الفريق ، ام از جثمانه وخطاباته اختطت طريقها الطبيعى ، هو الى جانب قصى من الجبانة ، وهى فى احد الأركان المتزوية بدولاب فى مكتب التحقيق . كثيرة هى انشغالات الحياة ولهفاتنا حتى انه لا يكاد يقع حدث حتى تتراكم عليه احداث اخرى تطمره ، مثل أمواج البحر التى لا تكاد تلوح موجة حتى تلحق بها ثانية وثالثة ، وتغمر كل منها الأخرى ، ويكون الشيء الوحيد الذى يبقى مستبدا بالحواس هو الرهبة من هدير الأمواق .

امراة على الهامش

صوفيا مافرو يذى بابازاكي



امرأة على الهامش

فوجئت بثوبها الأبيض وعينيها الفرحتين . كانت قد فقدت
أخويها وأباها . هدم الموت بيتها ولكنها كانت تعرف كيف تبتسم
هذه الابتسامة الوضيئة !

جسم رشيق ، شعر اسود مبسوط ، عينان تسبحان في النور .
ثم يكن جمالها متفردا لكن وجهها كان روحا كله . طلبت أن تعرف
بها . كنت أريد أن أرى كيف تبدو فتاة في الثامنة عشرة من
عمرها فقدت كل شيء ولم تثبط همتها . كنت أخشى على الدوام
أولئك الذين يملكون المعركة شهداء من ذويهم . يهب المرء حياته
عن طيب خاطر . فليس الموت — إذا عرف الشهيد لماذا يموت —
سوى غيبوبة يزوح فيها كما لو كان قد شرب خمرا وسكر .
لكن ماذا يكون الأمر إذا اقتضى أن تفقد أولئك الذين تحب ،
الأب ، الزوج ، الأخ ، الابن ؟ اليس مخيفا أن تدفع الثمن كاملا ،
وان تضطر الى أن تفكر في أنه يجب أن تنقل ما بقي لك ؟ وإذا
كان الأمر كذلك ، فما العمل طالما ان الكفاح والموت يمضيان
متشابكي الأيدي ؟

لكن ايلي التي تشع شبابا وحيوية وهي تجلس امامي ، قد
أعطت كل شيء ؛ ولازالت تومض في نظرتها اللهفة الى المطاء .
سبالتها :

— كيف حال والدتك ، الآن ؟

— يرى الأطباء انها اذا اتبعت العلاج اللازم ، يمكن أن تنجو .

— وأحوالكما المالية ؟ لديكما نقود ؟ ثمة أصدقاء يساعدونكما ؟

— كان والدي ، كما تعرفين ، مديرا لبنك ، وترك لنا معاشا

صغيرا . لكنه لا يكفي . أما عن الأصدقاء فكان لنا منهم الكثيرون .

كانوا يدعون أبي وأمي لقضاء السهرة ولعب الورق ، وكانوا

يزوروننا . ولكن كان كل هذا قبل حركة المقاومة . أما الآن فهم

يتكرونا ويتجاهلون حتى أنهم يعرفوننا . يخشون أن يتعرضوا

للمنعاب . لم يأتوا حتى الى الجنازة . نحن ، كما ترى ، مشاغبون .

ارتكبنا الجرم الكبير بانجازنا الى الشعب . تقول أمي : « لا يهم

ذلك . ليس بيننا وبين هؤلاء الناس أوجه شبه تربطنا » وهذا

أفضل حقا . تصورى كم كان سيصبح الأمر رهيبا وثقيلًا على ان
أقابل في تلك الأيام أناسا من محبى السهرات والحفلات ؟
كنت اتوق الى ان أعرف عن « تلك الأيام » على اننى تخرجت
السؤال . لم أكن أريد أن أعكر صفو تلك النظرة الوضيئة . لكن
الذكريات ما لبثت أن بدأت ترفرف حولنا ، مشعلة في وجه الفتاة
قناديل مثل ورود حمراء ، وانفجرت الشفتان وباحت بالذكريات .
كانت تتكلم ببساطة ، وخلا صوتها من نبرة المأساة . كما لو كانت
تروى قصة قرائنها في مكان ما . ولكن عندما جاءت اللحظة التى
تصور لى فيها أخويها ، تذبذب صوتها بنغمات عذبة .

« كان فانيس فتانا الأكبر رزينا قليل الكلام . يفكر في الكثير
ولا ينس بكلمة . انخرط مبكرا في الجهاد من أجل الحرية . لكننا
لم نعرف قط الدرب الذى أخطه لنفسه . كان يدخل البيت على
عجل . يأكل لقمة ، وينصرف من حيث أتى . هادئا صامتا . ومع
ذلك كنت تلمحين وراء النظرة الساكنة الشرارة المقلقة التى كانت
تتمثل في الأعماق . كان يسدل على وجهه ستار الصمت ليخفى عن
أخته وأمه ما كانت تعده لكل ليلة طيعته المتقدة . كلمات سر ،
نشرات ، مخابرة ، هجمات ، أسلحة . كل هذا كنت تقرئينه في
وجهه الهادئ ، اذا كنت قد تعلمت قراءته طوال أربع سنوات .
أما بافلوس فكان من نوع آخر تماما . كان يتكلم عن كل شيء .
لم يكن بقادر أن يكتم شيئا . كان وجهه الأشقر يتأجج أحمرارا
فتشعرون انه يحيا مقدما اللحظات التى كان يخطط لها : « الليلة
سأتكلم بالالمانية في مكبر الصوت . من عشرة أمتار خارج المعسكر .
الى جنود المان . الثانية عشرة الا ربعا . هكذا تقول الساعة . أوف
الوقت . كيف تجلسان هنا وبلدكما يتردى في النيران ؟ »

كان الشحوب يملو وجه أمنا ، دون أن تفتح فمها بكلمة واحدة .
على انها كانت تهزول بعد قليل في أعقابها . وعندما كان يتكلم في
المعسكر كانت تقف هناك بالقرب منه عند مفرق الطريق . لا يفصلها
عن المعسكر سوى عشرين مترا . كانت تقف هناك عزلاء بكاء تحرس
المكان ، ولم تكن تغادره الا اذا رأت بافلوس يقف بالمعسكر
بالتفجرات ويختفى وقد اندثر المعسكر . وتتسلل في الأزقة الضيقة
الجاورة راجمة الى البيت حيث تنتظر عودة ابنها .

« ألم تحاول أن تمنعها قط ؟ »
« كلا . كانت تعرف انه لم يكن ثمة جدوى من ذلك . مرة

واحدة فحسب قالت : لا تنس يا ابنائنا قد اهدم برصاص الالمان
لكن فانيس قاطعها قائلا : ومن اجل ذلك ، يا امنا العزيزة ،
نحل نحن محله في الجهاد . منذ ذلك الوقت ، لم تكلمهما في الامر
من جديد ، الا انها صارت كلها اذانا صاغية ، لتسمع كلمة ، أو
تلميحا ، تحدث من برنامج الليلة ، فترب خط سيرها . قال لها
بافلوس ذات يوم : تعرفين ماذا اعتقد ، يا اماء ؟ طالما انك تجهدين
نفسك ، وتجرين وراعنا ، الا تأخذين معك اناء الألوان ؟
سألتها :

— وانت ، يا ابلي ، هل كنت تعملين في مكان ما ؟
— كنت اقوم ببعض الاعمال يدوي ، ولكن على الهامش دائما .
عندما اهدموا ابى بالرصاص ، قال لي فانيس : « ارمي امنا ،
يا ابلي . فربما كتب عليها ان تجرع اكوابا اخرى . لاتركها ..
وحيدة . اننا نمضي في الطريق الذي قدسته دماء ابى . ابقى انت
الى جوارها » . وهكذا ، لم اخرج كما كنت اتوق ايضا — لم
اخرج الى المعركة اتلقى رصاصاتها في صدري . كنت اساعد الفتيان ،
بان اكتب كل ما احتوجوا اليه . وكان محكوما على ان احيا معاناتي
الخاصة تحت ظل البيت ، بينما كان بالامكان ان انسأها في خضم
المعاناة العامة وفي نشوة المعركة . لكن الكارثة جاءت ذات ليلة .
دون ان تنبئ بها اية بادرة . كنت اسمع القائلين بان الكوارث
تأتي دون أن يتوقعها احد ، ولم اكن اصدق ما يقال . كان اخوأي
قد هجما الى فراشيها مبكرين ، ونامت امي خالية البسال تلك
الليلة . في منتصف الليل تقريبا دق الباب . بشدة وخشونة . لم
يكن الامر يحتمل ادنى شك . كيف يمكن أن تحزمي امرك ، وتفتحي
الباب ، وانت تعرفين ان الموت في الانتظار وراه ؟ ذهبت وفتحت .
كانوا ثلاثة من الالمان واحد الوشاة من بنى وطننا .
قال اليوناني : نريد اخويك . أين هما ؟
قلت : نائمان . ماذا فعلا ؟ ..

لم يجيبوا على شيء . ووجدت نفسي محاطة بفوهات البنادق ،
وقد القوا القبض على اخوي وهما في ثياب النوم .
قال لهما بافلوس بالالمانيية : « انتظروا دقيقتين حتى نرتدي
سترتينا » لكن الجاويش اوبر ذلك الكلب النازي الشرس قاطعه
قائلا : « لا دامى لذلك ، ايها الفتى » وأضاف ، وهو يربت على
كف جاره ضاحكا ضحكة تنضح بالقسوة : « حيث سيدهبان ، لن

يكونا بحاجة الى ثياب . اليس كذلك ، ياهانز ؟ »
 ضحكوا جميعا . وضحك معهم الخائن الذي يتكلم لغتنا .
 عندئذ هبت أمنا مثل سيف ممشوق ، كما لو كانت صبية في
 السادسة عشرة من عمرها ، وأمسكت بأيديهم . وتدفق الكلام من
 فمها الذي لم يكن ينبس بكلمة من قبل .
 « لا تأخذهما مني . ليس لي في الحياة غيرهما . قتلتم زوجي .
 اتركوا لي ابني على الأقل . اليس لكم أمهات ، انتم ؟ اليس لكم
 اولاد ؟ ألا تفهمون الألم ؟ لا يمكن ذلك . انتم بشر ولكم قلوب . قولوا
 لي انكم لن تأخذوهما . ها هو البيت كله لكم . خذوا الثياب ،
 الاثاث ، الكتب . خذوني أنا واتركوهما . »
 وكانت تتعلق باكتافهما ، وتمسح بأيديهم ، وتخر على الأرض
 محوطة سيقاتهم بلذراعيها وتسد الباب بجسمها .
 قلل هانز : يجب أن ننتهي . خذوا معكم المراتين ايضا . لكن
 الجاويش أديبر قاطمه بضحكة ساخرة من جديد .
 « اليس في قلبك أدنى رحمة ، ياهانز ؟ لابد أن يبقى بعدهما من
 بيكيهما . »

لحسن الحظ ، لم تكن أمنا تعرف لغتهم . ولكن ماذا كانت
 ستسمع أكثر مما حدثته ؟
 قذفوا بها الى وسط الغرفة بركلة . والقوا بي فوقها .
 وفي طريقهم للخروج . سمعت فانيس يقول : « ارضي أمنا ،
 يا ابلي » ..

في اليوم التالي ، بعد الظهيرة ، عندما كان كل شيء قد انتهى
 انتابني احساس بأن الأمر لم يكن سوى كابوس بشع . اذ كيف
 يمكن أن اكون قد اجتزت كل هذا ولازلت احيا ، محتفظة بعقلي ؟
 أصيبت أمي تلك الليلة بنزيف مخيف ، لم يستطع الطبيب أن
 يوقفه إلا بإعطائها مخدرا . ثم راخت في غيبوبة فلم تع شيئا مما
 حولها . وبذلك امكنتني أن انجز كل شيء بمفردي . في الصباح
 احضروا لي اخوي غارقين في دمائهما . كانوا قد اعدموهما رميا
 بالرصاص عند مفرق الطريق . غسلت جثتيهما والبستهما ثيابا
 بيدي ، هاتين . لم تذر عيناى دمة . ولم يدب الخوار الى
 ساقي قط ، لآتني كنت ادرك أنني لن القى العون من أحد . كان
 يجب أن اعجل ، وأن انجز كل شيء بنظام قبل أن يجيء الليل .
 من المؤكد أنني لم اكن في حالي الطبيعية ، لآتني غير قادرة أن

أفسر بعض الأمور . مثلاً ، عندما كانت تجرى مراسم الجنائز في الكنيسة ، وتتلو القساوسة صلوات الموت لم أكن أفهم ما صلة كل هذا بأخوي . كنت أقول لنفسى لماذا لا ينشدون النشيد الوطنى ؟ ما شأن أخوى بكل هذه التراثيل الحزينة ؟ وفي المقبرة انفلت من أبدي أولئك الذين كانوا يمسون بى ، ومضيت أنتقل هنا وهناك ، أجمع من الحوائط زهوراً برية أنثرها على وجهيهما . كنت أذكر كم كانت فرحتنا جميعاً في البيت عندما خلصنا بأفلوس من التيفود في العام الماضى . كنت أذكر أيضاً فانيس فتاناً الأكبر الذى كان معتل الصحة على الدوام ، وكانت أمنا دائماً تهابه الخوف عليه . كنت أذكر كل هذا وأربت على وجهيهما ...

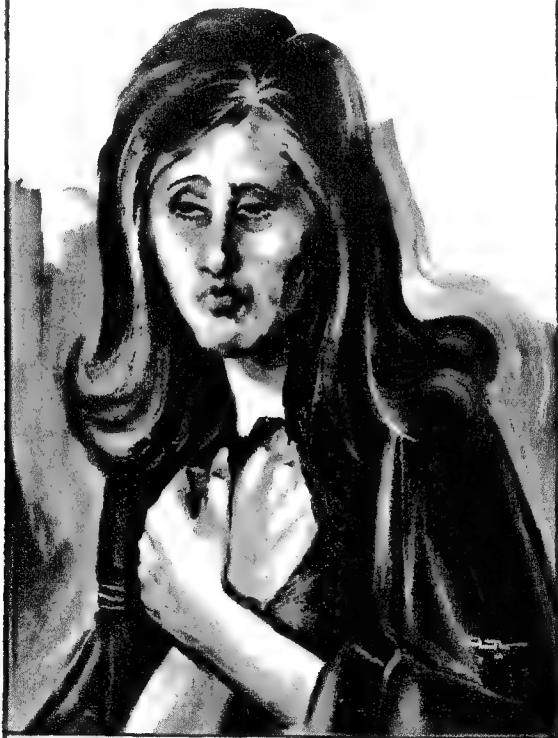
توقفت عن الكلام . شابت النظرة الوضيئة غمامة صغيرة ، ولكن من العينين لم تطفئ دمعاً واحدة . لم أقطع الصمت الذى خيم ، لكننى تذكرت ، وأنا أراها جالسة هناك أمامى بثوبها ناصع البياض ، والصمود في عينيها - تذكرت شكاتها : « كنت دائماً على الهامش » . « عندما أفاقت أمى ، تكلمت بعد قليل . لم توجه الى سؤال . ربت على يدي فحسب ، وقالت : بقينا وحيدتين ، الآن ، يا ابلى . يجب أن نفعل شيئاً نحن أيضاً . هل تذكرين ما قاله فانيس ؟ إذا رحل أحد ، يجب على الآخرين أن يحلوا محله . أريد أن أعمل في سبيل الهدف الذى وهب ولدائى وودجى حياتهم من أجله ... ابحنى يا ابلى .. ابحنى لى من عمل أعمله ... هذا ما جعلنى أحضر اليك اليوم . يجب أن تجدى عملاً لأمى . وأنا أيضاً أريد عملاً لا أستطيع أن أترك أمى وحدها مريضة . سأستغل من جديد في البيت . لكن عندما ستأتى الحرية بعد قليل أريد ألا أخجل من أننى لم أعمل من أجل مجيئها » .

أرسلتها الى « صحف المقاومة » لم أرها بعد ذلك ، بل ولم أخبرها عما أنا مدينة لها به . فلم أعد بفضلها أخشى شيئاً . لم أعد أحصى بقلق الشهداء الذين نههم كل يوم . فان الموت يمضى جنباً الى جنب مع الكفاح ، دون أن يعوقه أو يشبط من قوة اندفاعه ، بل هو يزيد على العكس ، اشتعالاً .

ان هذه التربة التى تمسحها ، تعيد بقوة الدماء التى تتشربها شملة متأججة . غداً ، ستلقى هذه الفتاة التى كانت تعمل حتى اليوم « على الهامش » بنفسها الى ساحة المعركة ، وستحارب بكل ما في كيانها من شبابٍ ملتهب . لن يضعف الموت الجموع ، وستأتى الحرية .

بستان البرتقال

فيليبو بيريدى



بستان البرتقال

ان هذه البقعة من شاطئ قبرص مكان مبارك . ارض رملية طيبة ، ماء طيب ، وانفاس البحر التي تطف من برد الشتاء . كل ما يلزم لزراعة اشجار البرتقال . مكان تفضيه الحدائق . شريط اخضر يحوط الزمال الذهبية الممتدة في شبه دائرة حول الخليج ويتدفق عند اللسان الصخري . وفي مايو عندما تهب النسيمات من الارض ، يعمق الزهر بأريج هواء البحر حتى مدخل الخليج على امتداد ميلين .

قد تكون زراعة البرتقال مجرد كلمة ، ولكن كيف تصبح هذه الكلمة حقيقة امر لا يعرفه سوى اناس ، من امثال بيتري ، كرسوا جهودهم العمر كله للتربة والشجر حتى لم يعد بالامكان ان تفصل بالنسبة لبستان هذه العناصر الأساسية الثلاثة بعضها عن بعض . هكذا تعهد بيتري ببستانه حتى نمت وترعرعت فيه اشجار البرتقال عند الطرف القصي للشريط الاخضر على الحد الفاصل بينه وبين اللسان الصخري .

عندما استقل عن ابيه وانصرف يعمل من اجل ان يكون له حقله هو كان متقدما في السن بعض الشيء ، فقد كان قد بلغ الثلاثين . لم يكن بمقدوره ان يختط طريقه الخاص قبل ذلك ، فقد كان عليه ان يرعى اخيه ، وقد تزوجا في سن متأخرة . ومع ذلك لم تصدر عن بيتري شكوى قط . لم يكن ذلك طيبة فيه او اكثر االا منه بالا بتخلي عن في حاجة الى حمايته . كلا ، لم يكن هذا هو حقيقة الامر . كان بيتري من اولئك القوم ذوي الجاش الرابض الذين يواصلون بثبات وعزم السير في الطريق الذي جعلته الحياة من نصيبهم ، قادزين على ان يحيو حياتهم دون ان يقيموا وزنا لاحد ، مما يحمل الآخرين على احترامهم . سار على الدرب الذي لهجة اجداده منذ قديم ، كتوما مجدا ، وعاش نمط حياتهم لجرد انه وعى الحياة هكذا . زوج اخيه . وزع عليهما املاك الأسرة . وناط اليهما رعاية الابوين الطامنين في السن ، ثم بغير ان يلتقط انفاسه يوما واحدا رسم علامة الصليب ، وبصق في راحتيه

وشرع يضرب الأرض بفأسه حتى يزرع الشجر في أرضه هو ،
غرسها . طعمها . حوطها بسور . بنى بيتا صغيرا ، وتزوج .
ماذا بهم بعد ذلك انه اختط طريقه في الثلاثين بدلا من ان يختطها
في العشرين . المسار واحد في الحالتين ، بل والمسبار الداخلي
أيضا ، ذلك الالتحام بين روحه وبين هذه التربة وهذا الشجر ،
إلى الحد الذي لا يستطيع معه أن يميز بين جهاده وجهاد الشجرة
الفتية التي تكافح لكي ترسخ جذورها في الأرض ، ولا أن يميز
بين الله والم الشجرة متى أصابها الداء ، وإلى الحد الذي يسمع
معه في نومه صوت أشجاره وقد اشتد عودها ، ويشعر بالفرحة
لأنها شربت حاجتها من الماء وأرتوت .

وقد قدر لتأخره في اختطاط سبيله والاستقلال بكده أن يكون
سببا لأن يختلف نهج حياته المؤلف من ناحية واحدة . كان
بيترى قد تجاوز الخامسة والثلاثين عندما أنهت زوجته التي
ناهزت الثلاثين بدورها طفلهما الأول . كان ولدا . ولم ينجبها
غيره . وقد حوط الأبوان اللذان في منتصف العمر هذا الابن ،
أرتيمي ، بمواطف لم يالفاها من قبل ، وكانا يختزانها في الأعماق
مهمة غير مفهومة ، لكنها غرست في قلب الأم بلرة حب لا حدود
له ، وبشت في عقل بيترى بعض الأفكار الجديدة . وهكذا تلقى
أرتيمي الابن الوحيد من أمه ملاحظات غير مفهومة من أقرانه ،
ونال من بيترى الاذن بأن يذهب إلى المدرسة الثانوية في المدينة
التي تبعد عن القرية مسيرة ساعة .

ولم تتوقف الأفكار الجديدة في عقل بيترى ، فقد انتوى أن
يؤفد أرتيمي ليكمل تعليمه بعد المرحلة الثانوية . لكنه لم يتناقش
مع أحد في هذا الأمر ، ولا حتى مع نفسه ، فقد كان يعترف به
كأنه حقيقة لا تقبل الجدل . « فلينته من المدرسة فحسب .
وسترى » هذا ما كان يقوله في قراره ، وقد توقفت يده عن العمل
في الهواء لحظة ممسكة بمنجل التشذيب ، وأرتعشت في عينييه
إبتسامة ، ثم كان يعود إلى عمله في تقليم الشجر .

أصبح عالم بيترى الآن غريبا مشتتا بين تكريس جهده للأرض
وبين أحلامه من أرتيمي . وما كان عن الاثنين يتزعزع . كان كما
لو كان يعيش حياتين لم يكن يجمع بينهما في فكره البدائي شبه
مشترك ، ولكن لم يكن ثمة سبب لأن تدب الفرفة بينهما على أي
حال . كل ما هنالك أن الأحلام فتحت نافذة تدفق منها ضوء

جديد غمر قلب بيثري .

هكذا مضت السنين . بسطت أشجار البرتقال أغصانها وتشابكت أوراقها . وبلغ أرتيمي الثامنة عشرة من عمره ، وحصل على الشهادة الثانوية . صار فتى أسمر رزينا قليل الكلام ، يشبه أباه كل الشبه . وكلما شب أرتيمي وأفلح انشر النور في قلب بيثري بثقة واطمئنان ، كما لو كان فلاح الابن مصداقا على فلاح الأب في بستانه .

ومع ذلك ففي الآونة الأخيرة بدأت تهب ريح جديدة اقتلعت من الناس البابهم . نداء شامل مزلزل كأنه من أعماق الزمن يبشر بأن الساعة قد حانت . فلم يعد أطياف الحياة اليومية يسع أهل الجزيرة الطيبين . في المقاهي ، وفي السوق ، وفي البيوت ، وفي مقار العمل ، وفي المدارس ، علت موجة من التحذيرات والترقيات والتحديات سمت بالأرواح فوق منطق المصالحة والروتين . امتشق الشبان سلاح الحماس ، ومضوا يتقصون عن فرص التضحية والفداء . كانوا يروحون ويجيئون . ينتحون جانبا ويتهايمسون ، ثم فجأة يقفزون إلى دراجاتهم ، يركبونها ويمضون إلى المدينة . وكان أرتيمي من بينهم .

ساورت الريب بيثري منذ أول وهلة ، إلا أنه لاذ بالصمت ، ومثل الحيوان البري اشم في الهواء مقدمات العاصفة الهوجاء . ويكل تحفظ مضى ينتظر أرتيمي ويتتبعه ، لكن ذات يوم عندما حاولت زوجته أن تحدثه عن مخاوفها على ابنها الذي لا يرتدع ، نهزها قائلا :

- دعيه وشأنه ، أنه يعرف ماذا يفعل . ماذا تريد من رجل مثله ، أن ينكص على أعقابيه ، ويندس مختبئا وراء فساتينك ؟ على أنه بدأ يروض بعد ذلك من تحفظه زويدا زويدا احساس بأن كل هذه الانتفاضة من حوله تنبئ من جذور وجوده ذاته ، من الأعماق ، من أقصى الأعماق ، من حيث يعتمر رحيق شعوره بقوميته .

وفي يوم من أيام الخريف السابعة في دفء الشمس ، كان بيثري جالسا عند عتبة داره يصلح مضخته استعدادا لتغير أشجاره بالكبريت ، ما أن يجد الوقت المناسب لذلك . فتح الباب في سحر الحديقة بدفعة قوية ، ودخل صبيان لاهئين جاءا ووقفا أمامه وهما يديران بارتباك في أيديهما قبعتيهما المدرسية . فرح بيثري

لأرأهما ، لكنه لم يفصح عما انتابه . تطلع اليهما فحسب وانتظر
أن يتكلما . في النهاية ، قال أحد الصبيين بلهجة سريعة ، وربما
كان قد نسي ما كان قد سبق أن أعده من كلام - قال بعبارة
مفككة كل الحكاية : نزل الطلبة في مظاهرة . أطلقت « قوات
الأمن » الرصاص . سقط اريمى الذى كان يحمل العلم في المقدمة .
جرح اثنان آخران ، لكن اريمى ... سقط ! كرر الصبي قوله
بصوت نائح .

فهم بيتري ، وهب لتوه واقفا . ارتفع بداخله عمود من الغضب
العارم ، وعلا الصراخ في أعماقه . أما الأم التى كانت في البيت
وسمعت فقد ندت منها صيحة ، وهمت بالاندفاع خارجا ، لكن
بيتري مد يده وصددها . وبينما هو يحتضنها بحثان لم يسبق أن
أحس بعثله اقتادها وأعانها على الجلوس .

بدا كل ما أعقب ذلك في هذا اليوم واليوم اللاحق بالنسبة
لبيتري كما لو كان يجرى في منطقة منفصلة من حياته ، في منطقة
لا شيء فيها ينتهى ، ولا شيء يبدأ ، لأن اللحظة ، كل لحظة ،
مشحونة الأعماق بارتجانات تفر وتستحوذ وتوجه كل شيء .
ووسط الانسحاق الذى عاناه قلبه ، أحس كما لو كان مشدود
الأثر من تماثيل متراكم ومتجاوز للحد بين مأساته والتبض الكلى
لسا حوله .

لكن بعد أن ووري جثمان اريمى القبر أقبل الليل . وأخذ
المعزون ، بضغطة على اليد ، بكلمة مواساة طيبة ، ينصرفون .
وبعد منتصف الليل بقى الوالدان المعززان وحدهما ، وليس ثمة
من يقف الى جوارهما في حزنهما الكبير .

أحس بيتري عند ذلك أنه قد هبط الى المنطقة المألوفة ، حياة كل
يوم . استدار ونظر الى الأم التى جلست صامتة مكسورة الجناحين
وقد بدا لها باطلا كل عناء وجزع . أحس نحوها في قلبه بذلك
الحنان من جديد ، وسرى في عروقه ديبب ميل الى ملاطفة مكبوتة .
وما لبثت الأم وقد هدها التعب أن رقدت تحاول النوم ، أما
بيتري الذى لم تعد الدنيا تتسع له فقد فتح الباب ، وخرج الى
البيستبان .

جرفه مشهد أشجاره النابض بالحياة ، وشذاها المألوف في
ضوء النجوم - جرفه ذلك الى فلكها كما كان يحدث له دائما .
كانت هذه أحلى ساعات الليل ، تلك التى تبشر بانبلاج الفجر .

مضت الجنادب تفرز صوتها خيوطا على خمار الصبغت . تخفق
جناحا دجاجة في حظيرة الدواجن . ومن بعيد سمع خوار ثور .
ثم اخذ الأفق يكتسى بلون وردى ، ولاحظ بيشري أن الجو كان
جافا وساكن . « حان وقت التعفير » هسدا ما فكر فيه الفلاح
الذى استيقظ بداخله ، ثم عمد من تلقائه الى ربط الفكر بالعمل ،
فعمى الى كوخه حيث صف معداته ، واخذ مضخة التعفير ، وشرع
في العمل .

ملأت المضخة صمت تلك الساعة في الفجر بصوت غريب ، كان
يشبه حشرة رتيبة عنيدة من مخلوق يحتضر - بصوت كما لو
كان يهيب بالشمس وهي تشرق وتبسط نورها أن تعطي لكل شيء
معنى واضحا .

للرأة ذات العينين البريئتين

ميخائيل كانيليس



المرأة ذات العينين البيريتين

— أيها المتهم ، ما دفاعك ؟

— في قاعة محكمة الجنایات بسط الصمت الخالص جناحيه
الملاقين .

حبس كل الموجودين سواء من هيئة المحكمة او المحلفين او الحامين
او المتفرجين . حبس كلهم انفسهم . وقد تسمر في صلورهم
قلق مشترك .

بدا المتهم مشدوها ، مستغرقا بمواكب الاشباح الحزينة المتتابعة
امام بصيرته الداخلية . لم يحرك ساكنا ، فلم يكن قد سمع ما امره
به رئيس المحكمة .

وبصوت أكثر ثباتا ، عاد هذا الأخير يقول :

— أيها المتهم ، لم تجيب ؟

لكثرة واحد من هيئة الدفاع عنه بلباقة من تحت المنصة :

— ياسيد فلانيني ، ادل باجابتك ...

ثم كرر عليه القول ، بصوت أكثر خفوتا . حتى يفهمه ذلك الذي
جلس محطما على مقعد أولئك الذين هدمتهم شرورهم :

— هيا ، تشجع ، أيها الصديق التمس ...

فندند فحسب أفاق المتهم من غيبوبته .

هب في وقفة آلية ، وبحركة تلقائية رتب خصلات شعره الاسود
التي تلقى ظلالة ثقيلة على وجهه مثل عرف غراب أدكن ، ثم فتح
فمه كي يتكلم .

انه يافلوس فلامى ، الطيب الشاب المعروف لدى اوساط
المجتمع الراقى ، درس في أوروبا ، وكان يبشر بمستقبل باهر ،
كتابة من نوايخ الجراحة .

أما الآن ؟

يا للخراب !

(كانت المأساة المخيفة قد انتفضت عليه فجأة مثل طائر كاسر فقا
بمنقاره الجارح عيني قدره السعيد) .

تجمعت في المحكمة يوم القضية النخبة المتسازة من المجتمع
الاثنى . مضت الاسنة النعمة تلوكه من كل ناحية بقدر ما في
الجموع من فضول .

وكان القريب في الأمرحقا ، اذكان العكس هو المتوقع حدوثه ،
ان النساء تعاطفن معه ، بينما القى الرجال الوزر عليه ، وقلدوا
في وجهه جميعا قولهم :
- أيها المجرم !

بدا بافلوس فلأمر وقت ان قام يدلى بدفاعه رماديا ، شاحبا ،
كعبت قبل أوانه غطاءه فيض من التراب الظلم ...

بين الفينة والفينة ، عندما كانت تصل اعترافاته المفجعة الى اكثر
مشاهدتها قتامة كان يلجم لسانه ، ويتعثر ، ويبح صوته . وبين
شذقيه كانت الكلمات تجهض ، تموت قبل ان تولد ، وتختلط
هياراته ويدب فيها الارتباك . وعندئذ كان حديثه المحطم ينبىء عن
مبلغ الدمار والخراب الذي حاق بروحه ووجدانه .
وشرع يقول :

... ..
- أين عرفتها ؟ كيف عرفتها ؟ لماذا عرفتها ؟ لا أدري ...
يكفى اننى قد عرفتها ... عرفتها بالقدر الذي يمكن لرجل ان
يعرف امرأة . اعنى اننى لم أعرفها قط ... لأنك كلما زدت
تعرفا على امرأة ، كلما ازداد جهلك بها . ان المرأة تبه تضل في
سراديبه . وكلما أوقلت في أعماقه كلما تكاثف الظلام من حوله ...
قاطعه رئيس الجلسة بعصية :

- أيها المتهم ، أدخل الى الموضوع راسا . الى الموضوع راسا !
انك لم تات هنا لتتفلسف ، بل لتدافع عن نفسك ، لتبرر لنا
تصرفك ، لتبرر تصرفك ...

(كان السيد الرئيس قد اكتسب من عمله القضائي عادة ان
يردد ثلاث أو أربع مرات ختام عبارته . وكان هذا التكرار المشدد
يضمن عليه صلابة ومهابة ...)

هب الأستاذ ميلاراس محامى المتهم وعضو البرلمان - هب واقفا
برشاقة ! انتفض الشعر المستعار على راسه مثل أسد هصور ،
واندفع يقول في احتجاج متاجع :

- اننى اعترض ، ياسيدى الرئيس ! ان دفاع المتهم عن نفسه
حق مقدس ! لا تنسوا ان حياة انسان يتهددها الخطر في هذه

اللحظة ، وان حبل المشنقة ليس بعيدا عن رقبته .
— اننى لا اسمح لمحامى المتهم بمقاطعة المحكمة .. لا اسمع بذلك
لا ..

— بل مستمعون ، ياسيدى الرئيس ، ان حياة موكلى فى خطر،
ولهذا فمن حقه ان يدافع عن نفسه كما يشاء ...
اشتبك الرئيس ومحامى الدفاع لحظة فى مشادة حامية . الا
ان وكيل النيابة الذى كان من أعضاء الهيئة القضائية الطيبين نجح
فى تهدئة الطرفين . وهكذا استطاع الطبيب فلامى ان يواصل دفاعه
عن نفسه بلا قيد سوى نصيحة واحدة من رئيس المحكمة ان
« اختصر .. اختصر .. اختصر .. ! »

— كان الوقت صيفا .. صيفا أحمر ، أحمر مثل شفتيها ، أيها
السادة ... فى بعض الأحيان ، خيل الى ان شهر يوليو قد ولد
من شفتيها ... كنت أقضى أجازتى آنذاك .. لا كم من السنين
مضت منذ ذلك الحين ؟ كم من الأصناف انقضت ؟ لا أعرف ...
اذكر فحسب انه الوقت الذى كنت فيه لا ازال أحياء ! قضيت
أيامى وليالى حلوة فى تلك الجزيرة من جزر بحر أيجه .. كان
الليل ينساب فى هدوء فوق جسمى مثل اهداب جيبية . آه ، كم
انسجم جسمى مع ليل تلك الجزيرة ...
ثم التقيت بها !

لم يكن لها أب ، ولا أم ، ولا قريب . كانت وحيدة وغريبة
ومعتزلة ، كما لو كان قد القى بها الينا كوكب آخر . أكانت آنسة ؟
سيدة ؟ أرملة ؟ لم أكن أعرف . وما من أحد غيى كان يعرف .
كان الجميع ينادونها « بالمرأة ذات الضحكة الحمراء » .
رقصت معها ..

كانت رشيقة مياسسة القد مثل شبح امرأة حسناء بعثت الى
الحياة . أثناء الرقص كانت تنزلق من بين يدي كما لو كانت طيف
امرأة . كنت أفقدها من حضنى فجأة بينما كنت أحتويها كلها
بذراعى . وبين الفينة والفينة كان أحد أجزاء جسمها يتبخر من
جانبي وان كانت تظل فى ناظرى . وكان هذا مدعاة للرهبة !
كنت أراها كاملة ، ولكننى كنت أحس بها ناقصة . لم تتبين
عينائى على هيئتها المضيئة شيئا غائبا ، ولكن لمستى كانت تشعرنى
بأن ثمة فراغا ...
ذات ليلة رقصنا كثيرا . لم تكن تلك التى بين ذراعى امرأة ، بل

كانت روح الرقص التى تفتننى وتلهب النار فى جسدى ، تبصده
كمادة وتضع فى أفوار البحر العميقة ، بينما كانت تظل تنتفض
وتتنشئ فى أحضانى . كانت جد بعيدة عن متناول يدى . من يدري
أين ؟ . فى الوهاد الغائرة ، فى الأجواء الاثيرة المترامية ، فى أجواز
الفضاء ، فى مدارات النجوم ، لاشك ان موطنها الغامض هناك فى
مكان من هذه الأمكنة ...

كان جسدها يسافر ، يهرب ، يذوب ، يرحل بعيدا تاركا لى
أطاره الخارجى فحسب ، كنت أرقص - ويا لهول ذلك - مع الجلد
الخارجى لمخلوق وحشى أجوف ..

شربت تلك الليلة الكثير من الشبانيا . فشعشت الخمر فى
خواء كيائها ، وتلايلات الومضات فى عينيها ، واضاءت بشرتها مثل
طبقة من الراديوم .

ومن الغريب أنها ما كانت تغيب عن وعيها مهما شربت . على
ان جسدها كان يتخبر من أمامى ويستحيل فى ناظرى طيفا ناصع
البياض ، كما لو لم تكن مخلوقا بل كائنا يتعدى كل المخلوقات ...
كانت انثى تتجاوز روحها الحدود .

ولا شيء غير ذلك ..

فقط كانت النظرات تتطاير من عينيها ملتبة ، كما لو كان القدر
قد اقتلع من غراس باطن الأرض مقلتى شيطان وزرعهما فى محجرهما .
كانت عيناها مغممتين بالحياة . أما شفتاها الحمراء ، شفتاها
شديدتا الحمرة فقد بدا لى انها كانت تخضبهما بلهب الشمس ...
أومات لى قائلة :

- لنذهب ...

- الى أين ؟

- لنذهب ...

لم تنبس بهذه العبارة . كلا ، لم تنبس بها . أقسم لكم على
ذلك بحريمتى المحتومة القدسة . أقسم ! لماذا أخدعكم ؟ وما حاجتى
الى ان أخدعكم ؟ انكم ترونى : اننى ميت ...

لم تنطق بكلمة « لنذهب » لم تنبس شفتاها بهذه الكلمة ..
ومع ذلك فقد دوت فى أعماقى .

وذهبت ، عجمتها موثق القيد الى خطاها ، يشدنى ظلها اليها كما
تو كنت كليهما الأمين وسرنا معا ، انا والمرأة ذات الضحكة
الحمراء ، انا والشيطان ! ذهبنا الى خليج هادىء ، قصى ناء عن

العيون ، حيث كانت الأمواج تنيسط مثل الشهد على رمال الشاطئ .
من حولنا ، مضت النجوم تسير بين الصخور . أما القمر فقد
كان قد انسكب كله في البحر . وفي اليم المريض ذاب صديده
قيدت الموجات الساكنة مخضبة بما يشبه صفار البيض .
وقفت صامتة على صخرة صغيرة جوفت ما تحتها تيارات البحر
القائرة .

نظرت إليها ...

بدت هيئتها كاملة ، ومع ذلك لم يكن أمامي حتى ولا نصفها .
أين ذهب الجزء الباقي من جسدها ؟

شرعت المرأة تخلع ثيابها ...

مضت تتجرد أمامي ، بلا اضطراب ، وخجل ، ولكن بلا
وقاحة ، كما لو يكن ثمة رجل إلى جوارها ، كما لو لم أكن هنا ،
بل مجرد طيف خيالي ...

هل كانت تجهل وجودي ؟

هل كانت ناسية ؟

من يدري ؟

كانت تخلع ثيابها ...

ومثل بخار ينفصل من بخار أخفت الغلالات تسقط من جسدها
الائثري . وكنت أرتمد ، أرتمد مثل حيوان مقصى عليه ، خشية أن
يتبخر الآن مع ثيابها جسدها أيضا ، أن تتبدد المرأة من أمامي ،
وتستحيل هواء أو ضبابا أو علما !

ويدون أن تفتح فمها ، قالت لي صراحة ، بكلمات لا تنبس بها
الشقاء بل تتحدث بها الأعماق :

- ألق بنفسك ...

- أين ؟

- في اليم . ألق بنفسك ...

كانت الآن عارية تماما .

تمتمت ، مجنونا :

(مجنونا ؟ كلا ، لم أكن مجنونا ، كلا ، لست مجنونا ، من قال

أنتي مجنون ؟)

- لم نحضر لباس البحر ..

أشارت لي المرأة العارية ، بحركة آمرة إلى البحر الساكن سكون

الأموات ، الى اليم الفسيح الهادئ المليء بالصييد ، الذي يرقد
نائما .

— الق بنفسك ...

وفي لحظة كنت بدورى عاريا الا من جلدى البهور . وقد غاصت
ساقاي باستسلام في طحالب البحر وحشائشه . خطوات اولى خطواتى
في الماء فبرت الرعدة في اوصالى ..

رايته راكدا سميكاً كان البحر مريضاً الليلة . بطنه التى تكافئ
عليها الطحالب انتفخت على غير المألوف كما لو كان قد أصيب
بالاستسقاء منذ سنين .

كان البحر مريضاً الليلة ، مثل انثى اكتمل حملها وبلغ منتهاه .
وقد طفحت على سطحه طبقة من البثور مضت قدماى تفقاها في
خطوى . كنت أشعر ان البحر يلفظ اللبلة سموما . كان اليم
مكرا ، مكرا للغاية .

توقفت .

أردت أن أعود . آه ، ان أعود ادراجى الى اليابسة من جديد
حيث تجد أقدامى الاستقرار والرسوخ .
ولكن هيهات ! ..

لقد نهنتى المرأة العارية عند ذلك ، بأسطة ذراعها تحوى مهددة .
انصبت المرأة واقفة بينى وبين القمر ، قرأت ، وبالهول مارأت ،
القمر وضاء من خلالها ؛ كما لو كان جسدها شفافا ، لم يكن يحجب
اشعة القمر . لم يكن يصددها .. كان الضوء يخترق قامتها بحرية
.. كما لو لم يكن جسدها من لحم ودم بل من زجاج ! ..

أية طبيعة ، أية خليفة ، من أية مادة ، مجهولة بعد في هذا
السكون صنعت هذه الأنثى الغريبة ؟

أواه ! لم تكن قد خلقت مثيل نسباء الأرض ، من ماء وجير
وفوسفور وخلايا ، كانت مخلوقة ذات تركيب بيولوجي خارق .
كان معدنها قد انصهر واستوى في أفران جد مختلفة خارج نطاق
أرضنا . كانت معلومة حية ، اشارة نشطة تبث بها القوى العاقلة
في الفضاء المترامى الأطراف عن المخلوقات التى تحيا وتتحرك خارج
نطاق الكرة الأرضية .

رايتها تنقر بدورها بعد قليل الى جوارى في اللجة .

وبرت الرعدة في من جديد .

سقطت دون أن أسمع أدنى صوت لارتطامها بالماء . وغاصت في صمت .

شرعت تشق الموج بلا جليلة .
انتابني الهلع . أردت أن أراها ! أردت أن المسها لم أكن أريد
أن أثبتن الآن من هي ، بل أن أثبتن ما هي ..
هجمت عليها ..

أدركتها وذراعاها يشقان اللجة السميقة كما لو كانا يشقان سطحا
من العسل . طوقت وسطها مثلها أن أضرم جسمها إلى جسمي
أخيرا ، وأن أحس به مثل سائر أجساد نساء الأرض ...
وعندئذ حدث شيء مخيف ، لن تصدقوه أنتم لأنكم لم تلتقوا
« بالمرأة ذات الضحكة الحمراء » .

لم تصادف يدي وأنا أحضنها أية مقاومة ! لم يكن لجسدها
كثافة خاصة تزيد على كثافة الماء !

وفصلت جسمها عند الوسط ، شطرته بضمتي لها . وبلا حد
من جسدها أمسكت يدي بجسدي أنا !

لكن المرأة الغريبة كانت هناك ، إلى جوارى ، تكاد تنكبه على
بسفاه وحيوية ، وأسنانها البيضاء تلمع وضادة بين شفتيها
الحمراوين .

سرت رعدة باردة في عروقي .

لم تكن هذه المرأة من لحم ودم ؟

مما كانت إذن ؟

يخيل إليك أن ثمة مرضا قريبا على الجنس البشري قد أوهن
من التصاق أجزائها بعضها ببعض ، وزاد من الفراغات بين خلاياها ،
وحذف الرباط الوثيق بين الذرات . فاستطاعت يدي بذلك أن تجد
على نحو ما ، فجوة نفلت منها .

ولكن كيف بدا إذن قوامها الوطيد على هذه المرونة والتماسك ؟

كيف لم يكن يسبح وينهار مثل كتلة هشة .

تفحصته الآن لا كرجل ، بل كطبيب لأثبتن غواهره الكيميائية ،
لأفهم لماذا خرج هذا الجسم على قوائين الطبيعة التي لا حيدة
عنها وتحكم الوجود كله .

وربت عليه ...

وأجريت راحتي المتبقطة عليه كله متحسسا إياه لا عن غاطفة

بل عن حس تشريحي موهف .

لم يكن يبدو على الجسد الآن وأنا انحسره أية بوادر غير طبيعية . كان الجسد العادي لامرأة شابة ميلا بالماء ، ، مصقولا مشرعا مثل فصل أبيض .

نقط حيثما لمستها ، بالضبط حيثما التقت بشرتي بشرتها كان يبدو احمرار ، كان لحمها يتورّد ، ولكنه سرعان ما كان يفقد لونه كما لو كانت شمة شفاه مجهولة تطفئ لواعج الذهب .

وهكذا مضيت آنفحصها ، تحسنت كل موضع من بشرتها . دون أن تخطر ببالها أدنى فكرة اسبستحياء ، كما لو لم تكن قد مرت قط بمرحلة الفلورية . تركت لي الحبل على الفارب ببراءة واستسلام طفلة في الثانية من عمرها كما لو لم تكن تعرف المعنى الجنسي للأساتات الرجل .

لكنني كنت أشعر بها الآن مكتملة تتدفق حيوية . كلها بين ذراعي ، تتكوى الى واتكوى اليها ، وكان هذا يكفيني .

كنت الرجل ، وكانت هي المرأة . كنا وحدنا ، كما لو كنا خارج حدود الدنيا . لا أحد معنا ، يلتف كل منا بجسد الآخر . كنت أسبستحياء .

ضغطت على يدها . وجذبته خارج البحر ، الى ناحية من الشاطئ يكسو رماله بساط من الطحالب ، كانت تفوح من احشائها انفاً خشناً لحضن ميت ، كما لو كانت تمور من تحتها في صمت قبلات موني الأرض كلهم .

أرقدتها على الطحالب . كانت الرمال تئن من ثقلها . انحنيت عليها فجأة . كانت الرغبة في أعماقي هوجاء عارمة لأنني لم أكن أجد منها أدنى صبيد .

همست متمتما :

— ألا تحبينني ؟

أجابتنني بصراحة تامة :

— كلا .

— ألا تحبينني ؟

— كلا .

(يا للجحيم ! كلا ؟ ومع ذلك كانت هنالك عارية كما ولدتها أمها ، مستلقية دون أدنى فاصل يفرق بين ظلينا !)
تمتمت حائفاً :

— صبروف تحبينني ؟

— ربما ...
أيه ، في النهاية ما الذي يعينى الحب طالما اننى ظافر بقرىها ؟
ما الذى تعينى الروح طالما كان الجسد لى ؟

— تعالى ! ...
لكنها لم تأت الى ، بل انا الذى اندفعت اليها ، فلم تتهرب
منى ، وتقبلتنى بارادة مستسلمة . وما لبثت الرمال أن مضت
تتر بعد قليل من فرط ثقلينها ...

بعد أن افقت من ضجعتى ، وجدتني قد عادت الى وقفها تحت
القمر ، وقد رفعت مينيها المتقدتين بنور احمر عاليا نحو قبة
السماء الرحيبة من فوقها .
تابعت نظراتها بنظرانى . ورايت انها كانت تحلق على الدوام
في النجم ذاته الذى كان يرتعش في الفضاء البعيد .
سبالتها :

— الى ما تنظرين ؟
اضطربت ، وشحج لونها :

— لا شيء ...
— اى نجم هو ؟
— انه نجمى انا .
تبينت ان هذا الموضوع قد ازعجها ، فتقلص جسدها كله مثل
فاه مسمورة . فغرت الحديث :
— هانت قد احببتنى ، اذن ...
— قلت لك كلا .
— لكنك قد وهبت نفسك لى .

نظرت الى مبهورة ، وقد كانت دهشتها مفعمة بالصدق ، حقا :

— انا ؟

— انك ...

— وهبت نفسك لك ؟

تمسكت بعزتي كرجل :

— ألم استمتع بك توا ؟

هزت رأسها في حزن :

— انت مجنون يا فتاى . انك تحلم . يبدو انك قنوع .

— اذن ، لم ... بحى لى ؟

وكنت أسببها :

— والآن ، من انت ؟

- لا شيء .

— الست لي الآن ؟

... ۳۵ -

كلا ! يا للشيطان ! لم تكن لى على الرغم من انها كانت لى !
يا له من عذاب !

وعندئذ تأقت يداي الى شئنها . وتحولت ملاطفتي الى اظافر
مسنونة . انزلت يداي من خديها الى اسفل واستقرتا على عنقها
واستعرت في أصابعي الرغبة العارمة أن أقتلها .
واستحالت قلتي الى نحيب ...

ذات ليلة بعد ممارسة الحب ، أردت أن أجعل عيني تلثم عينيها بحركة عاطفية دقيقة للغاية لتتلاقى فيها وموشتنا .

أول الأمر ، لم تتبين ما كنت أنوى . وما أن رأت حذقة عيني
تحتل على حذقتها المفتوحة الى أعلى ، حتى أطلقت صرخة .

انتفضت ودفعت بي بعيدا عنها ، ومن فمها انسكب لمصاب
مشتعل مثلما ينسكب من وحش جريح . قالت مولوة :

۔ ماذا تريد أن تفعل؟

— مجرد ملاطفة ...

۱۔ فَاِیْنِی؟

— ولما لها ؟

— لا أسمع بذلك . لا أسمع بذلك .

8 13L-+--+

— لان عینی سامانچہا من مہیاج...

ضربت حکت پرورد :

۔ اِن ، انا لست من تحبيبين ؟

• 25 -

لم تكن تعجبني ، ومع ذلك فقد كانت تمنحني جسمها كله أرتوي منه كما أشاء . ومرة أخرى على الرغم من أنها كانت تستسلم لي تماما مضت تدافع بضراوة عن عينيها فقد ارتبط بهما شرفها وعرضها . (ولكن أي مخلوق هي ؟)

أي مخلوق تلك المرأة ! لعنة ! ... أي شيء هي عرفت به
فيما بعد . ومنذ ذلك الحين وأنا أجرة على البيت على الأرض

مثل شيخ هاتم بالليالي ...
 ومع مضى الوقت ، وازدياد الألفة بيننا لاحظت على هذا المخلوق
 مظاهر غير مفهومة .
 لم تكن تستخدم أحمر للشفاه قط . ومع ذلك كانت شفاتها
 حمراوين على الدوام ، ليل نهار . لم يكن لونها يبهت قط .
 بل وحتى لما بها كان أحمر .
 في أول الأمر انشغلت عليها ، اعتقد أنها قد أصيبت بنزيف .
 قلت لها ذلك .

إتتــت .

— أننى بخير ...

— ولــكن ...

— افحصنى اذن ، ما دمت طبيــبا ...

خلعت ثيابها بكل ثبات . وظلت بين يدى عارية من رأسها
 حتى خصرها . تناولت السماعة وكلى خشية أن تتناهى الى سمعى
 العوارض التقليدية المعروفة .

أصغت الســمع ...

لا شيء من ذلك !

كان جــازها التنفسي يعمل بشكل منتظم وبلا لغط . كانت
 الشعبات الرئوية تضخ الهواء كصمامات آلة وطيدة الصنع ...
 ســالتها دهشا :

— ولــكن ؟

— ماذا ؟

— هــلذا الدم ؟

— ليس دما ...

ورفت كتفها متفــة :
 — وما شأنك ؟

لم تكن قوانين الطبيعة والطب بشرية اذن على هذا المخلوق
 الخارق للمألوف الذى كان يتعدى قبضة تلك القوانين الفولاذية ؟
 وقد لاحظت عليها أيضا أنها لا تنام الليل أبدا . وقد كان
 الفجر يلقيها شامخة موجهة بصدرها الى الغرب ، وقد أولت
 ظهرها بحركة عدوانية الى بركان الشرق المتقدم .
 ساهرة ، كانت ترشف شفاتها تيارات الليل كلها . وفى صمت
 راقدة على المقعد كانت تبثع النجوم ...

كل النجوم ؟

كلا .

تمكنت ان لاحظ انها كانت ترنو حالة بحنين ولهفة الى نجم واحد من بين النجوم كلها ، نجم احمر كان يسحرها ويجذبها اليه كمغنطيس لا فكاك من أسرهِ . . .

وتصادف ان كان يقضى اجازته بدوره على جزيرتنا احد معارف يعمل بمرصد نيكوس الفلكي .

ذات ليلة اريته ذلك النجم الذي كان ينشر في الفضاء بلا انقطاع اشعة مثل أوراق وردة حمراء :

- اي نجم هو ؟

- الا تعرف هذا النجم ؟

- كلا .

- آه ، ، انه النجم المعروف « آريس » !

الجم لساني ، بهت . ثم تمتعت :

- « آريس » ؟

- كوكب على غاية الاهمية . اقرب جيران الأرض . لا يبعد عنه سوى مليون ونصف من الكيلومترات . اي مجرد قفزة برغوث اذا ما قورنت بالمسافات الفضائية بين الأجرام السماوية . نجم احمر هو ، عرف بقنواته المشهورة التي اثار الجدل بين علماء الفلك منذ قرن ونصف من الزمان . بل وحدث النظريات عن هذا النجم انه كوكب مسكون ، ومسكون من كائنات جد قريبة الشبه منا ، طالما ان قوانين الحياة في آريس تماثل قوانينها على الأرض . تصور ، ياسيد قالي ، ان يكون هناك أيضا رجال مثل رجال الأرض ونساء مثل نساء الأرض ، تجمعهم عواطف واحدة ، بل وربما كان لهم الاجسام ذاتها . . .

وقد مضت الايضاحات العلمية المبهمة التي يدلي بها صديقي تدوي في سمعي .

شيء واحد من كل ذلك رن في ذاكرتي مثل جرس جنان .

- « نجم احمر . . . »

وهذه المرأة ذات الضحكة الحمراء ، التي لا اسم لها ، المجهولة ، كانت ترنو الى هذا النجم بحنين ويأس ، مثلما تتعلق أنظار سبية من مركب الأسر بأرض أجدادها وجبها التي تغيب عن أنظارها . . .

ذات يوم تلقيت برفيسة من أختي تقول : « أمنا مريضتنا .
عد حالا ... »

لم أمد . ماتت أمي . لم أرها ، لم أرافقها إلى مشاها الأخير .
فقد كفت أن أكون أنا . صرت حيوانا تابعا للمرأة ذات الضحكة
الحمراء .

ذات يوم سببت لها :

- كفالك تهريا ، وخبريني ما أسببت لك ؟
ترددت أول الأمر . أمسكت عزيمتها الإجابة الجاهرة على طرف
لسانها . لكنها ما لبثت أن اتخذت قرارها :
- ٣٥٧ ، ٢٥٤ ، ١ .

أجفنت !

- ليس هذا اسما ، بل رقما ...
- أنه اسمي هناك عاليها ...
- أين ؟

انزعجت . غضبت شفتيها كما لو كانت قد أسفت على كثرة ما
أفلت منها . ثم رفعت كتفيها بازدراء :
- هلا أتيت نرقص ؟

أمضيت شهرا معها بعد ذلك ، غارقا في النشوة والرهبة . وكلما
ازدودت معرفة بهذا المخلوق الغريب ازداد حبي له . وبشبه
استسلامها لي ومنحها إياي جسدها من طيب خاطر بقدر ما كانت
تمسك عني بإصرار عينيها البريثين وروحها العذراء .

ذات ليلة - وكانت عشية موتي ! - دعيت لأعود مريضنا .
امتطيت بفلا . فقد كانت قرينته تبعد أربعة كيلومترات من بقعتنا
الساحلية . اضطررت أن أبني بمنزل المريض . وفي مساء اليوم
التالي تحركت راجعا من حيث أتيت .

وصلت بيتي في ساعة متأخرة من الليل . كانت ليلة صفراء ،
كما لو كانت السماء قد أمطرت كبريتا . ومضت الكلاب سوداء
معلوطة تموي وقد مدت أعناقها وساقها الأماميتين مضمومتين في
اتجاه القمر الميت .

جريت إلى بيتها . صمت مطبق . كان الباب موارب . دخلت .
في غرفة نومها ضمت ملاطفات مكتومة ، وهبيات ماجنة من قم
اعتصر كل ما حلا له من قبلات وأقبل الآن على الكلام .
احسست بفأس خفية تهوى على ركبتي .

أرهفت السحب ~~السموات~~ مع .

- تعبيننى ؟

- كلا .

(يا للجنة ! ذات كلامها السابق تقوله الآن لرجل آخر ، ذات كلامها !)

واستطرد صــــــــــــــــوت الرجل المجهول قائلا :

- طالبا لا تعبيننى ، لماذا منحتنى نفسك ؟

- انا منحتك نفسى ؟

- أجل . آبت !

- انت مجنون . كيف استطعت ان امنحك نفسى ، وانا لا احبك ،

فصــــــــــــــــلا عن اننى لازلت عذراء ...

يا ايها السموات ، اطوقى على الارض واهلكيها ! كلامها ذاته
هذه العاهرة ! بكلماتها البريئة تغطى افعالها الفاجرة ! بكلمات
الانكار من فيها تحاول أن تغطى عطاء جســــــــــــــــدها .
- فاجرة ! ...

هجمت على غرفة النوم وقد اشرفت مسدسى فى يدي . رايتهما
هو وهى مستغرقين فى القبل . اطلقت النار على المشيق ! آفلت
من رصاصتى ، قفز من النافذة واختفى بعاره فى ظلام الليل .
الليل الذى كان يزحف خارجا فى الطريق مثل ضبع يلغ فى الفساد .
أما هى فلم . لكن اريد أن أجهز عليها بالمسدس . كلا ! هذه
لن يكون بمقدورى أن أقتلها بطلقة رصاص لانها لم تكن من مخلوقات
الأرض الطبيعية .

ضغطت على صدرها بركبتى . سمعته قرقة عظامها الداخلية
كما لو كانت تريد أن تقفز من مكانها لتخرج من فيها .
تطلعت الى دهشة مبهورة ، بريئة النظرة ، غير متبينة اى اذى
الحقت بى ، فلما استشعرت الموت يزحف اليها ، قالت وقد
علت الابتسامة شــــــــــــــــبفتيها :

- تقتلنى ؟ اشكرك ! ما عدت اطيع الحياة على كوكبك هذا
الذى حيث الحب مجرد التقاء قدر بين حيوان وحيوان ... اننى
أعترف لك بالجميل .. والآن ، احبك ... الآن ... اطبع
قلبك على عيني ... ابها الحبيب ... ابها الابن التمسى لارضكم
الشريرة .. الآن .. وقد احببتك .. اطبع على عيني قلبك ..
خذنى لك .. عيناى .. عاتق عيني .. اننى أموت ...

شرعت تدوب ، تنطفئ ، تتضائل بين يدي ، كما لو كان ثمة
 ربح يقطعها أربا أربا . كانت أجزاء جسدها تتحلل وتبخر ، الواحد
 في إثر الآخر ، كان العدم يتصاعد من قدميها الى جذعها ويبددها .
 أما أنا فقد مضيت أحضن جسدها الذي راح يتناقص . اندثر
 صدرها ثم أعقبه ذراعاه ومن بعدهما رقبتهما ثم رأسها ، كل هذا
 انطفا بدوره . وفي النهاية تلاشت عيناها ، عيناها البريثميهان
 اللابشريتان اللتان لم يستمتع بهما لحظة موتها سوى على الأرض .
 عندما خلا السرير من جسدها كله ، رأيت على يدي عينيها .
 آه ، لم ترحلا ، اذن ! بقيت عيناها وفيتين لجسدي وظلتا تحدقان
 في بنظرة حية متبعثة من امرأة عاشقة .
 أخذتهما مرتعشا وحافظت عليهما كشيتين نفيسين ، كجسدين
 مقدسين لنعمة البصر ، لأن هاتين العينين ستقوداني ، عندما
 سأظهر من أدراكي الأرضية ، وعندئذ كنجمين يضيئان طريقي
 سترشدني عيناها الى السبيل الذي أسلكه لأذهب وأجدها .
 وسأذهب لأجدها في بلدها البعيد ، في بلدها المهدب ، في بلدها
 الطاهر ، هناك !
 ويراه المحلقون .

الأحزان

إيمانويل ليكوذيس



الأحوال

حدثنا ما ساروبه لكم في ميناء بالمضييق الكورينثي ، على شاطئ اليونان الوسطى ، عند مرفأ تنعكس على صفيحة مائه ، مثلما في مرآة ، البيوت وقد اصطفت في خط مستقيم بلا كثافة ، ويلوح أمامك جبل المورياس الذي تتوجه عاليا قمم سيرياس ، وإن شئت فقل أن ما ساروبه لكم قد حدث في فيثربينيسا أو في اثينا . على مبعدة قليلة من الشاطئ ، رست سفينة شرابية ، جميلة الشكل ، قشبية الصنع ، ناصعة البياض كما لو كانت قد نزلت تهادى من النجوم . كانت السفينة مهيأة للإبحار . بدا ذلك واضحا من العلم المرفوع بأعلى صواريفها ، وأشرعة المقدمة والمؤخرة المنبسطة كلها على السواء .

رايت فجأة قارب النجاة يحل من مؤخرة السفينة ، ويخرج به بخار وحيد يمسك بمجذاف الخلفية ويديره مثل عجلة قيادة ، وعند الحافة الأمامية وقف كلب من كلاب السفن يعوى عواء حزينا . ومسا القارب عند الساحل الزملى ، أمام صف من الدكاكين ، وعلى وجه التحديد أمام قاعدة نصبت بأعمدة غرست في البحر ، كي يأخذها كعشاق التدخين نواجيلهم دون أن يتكبدوا مشقة النزول إلى الشاطئ . وسا القارب ، فرايت البحار يمسك بالكلب الأسود من ظهره وعنقه ، مثلما يمسك بشاة ، ويدفعه بقوة ملقيا به إلى اليابسة . وما أن ألقى به حتى انطلق بضربات شديدة من مجذافه مندفعاً بسرعة نحو السفينة .

لكن الكلب ألقى بنفسه إلى البحر ، في أعقاب القارب ، ومضى يسبح وهو يعوى عواء حزينا ! اتكب البحار على مجذافه الوحيد جاهدا قدر أمكانه أن يقطع بقرابه أقصر طريق ، ولكن الكلب بدوره ، يائسا ، راح يضرب الماء بسيقانه حتى لحق بالقارب . رفع البحار المجذاف وقد توحش غضبه ، وضرب الحيوان التمس على رأسه ، قائلاً : « بعيد المثال عليك ذلك ! » . اظننت أنك ستعود من جديد إلى السفينة ؟ » . أطلق الكلب التمس عواء أكثر حزنا ، ربما من شدة الألم ، أو

ربما من شدة الجوى. ولم يحاول بعد ذلك أن يعوض في اثر القارب ، بل راح يضرب الماء بسيقانه ، بلا هدف ، وبلا قصد ، لمجرد ألا يفوس في اللجة .

لحق القارب بالسفينة . ربطت البحار القارب بمؤخرتها ، وقفز الى ظهرها ، وهي ماضية في الاقتلاع . اضططت السلاسل بشدة ، ثم رقت المرساة الى الداخل . كانت الريح تهب طيبة من الشمال الغربي ، وفي التو انتفخت اشعة السفينة بالهواء وانسابت في اليم مثل ثعبان الماء . تاركة خلفها شقا يغور بالزبد ، متجهة بسرعة ومضاء نحو بحر ايجة .

ظل الكلب يعوى ، يدفع الماء من حوله مغلوبا على امره يتخطب ميمما شطر الأفوار البعيدة حيث رحلت السفينة . ولكنها كانت قد ابتعدت كثيرا ، وفي النهاية اطبق عليه اليأس . ادار رأسه نحو اليابسة ، وبصنا وجهه كبيرين تمكن من الخروج من الماء ملقيا بنفسه مثل جثة هامدة على اكوام الطحالب التي كدستها هبات الريح ، تحت القاعدة التي قلت لكم ان صاحب المقهى كان قد اقامها على اعمدة غرسها في الماء .

وما ان بلغ الكلب الشاطئ حتى نهض واقفا ، ماذا رقبته ، ماضيا في نباح يمزق القواد ، وهو يلوح صواري السفينة البيضاء نفوس مختلفة باهتة في ضباب البحر الرحيب . كانت بطنه تنتفخ بالهواء الذي يستنشقه بشدة ، وترعد فرائصه بردا ، وتسيل من عليه قطرات الماء المالح ...

كنت اراه هناك طوال ثلاثة ايام ، وقد اقمى لا يفادر مكانه على الشاطئ ، ولا تحيد نظاره عن عرض البحر ابدا . حملت اليه هناك تحت تلك القاعدة على الساحل بعض العظام وكسر الخبز ، ولكنه لم يقرب شيئا منها ! وما اراد حتى ان يتشم طعاما . وقد راح جسده يضم ، ولا تقوى سيقانه على حمله من شدة الضعف والهزال . فاذا دمت الحاجة الى القيام بدت اطرافه كما لو كانت قد اصببت بالكساح . ونفرت من تحت جلده الضلوع . كانت الاولاد تسومه من العذاب ، لانه كلب من غير صاحب ، وعلى حد قولهم كلب من كلاب الشوارع . كانت الحجارة تنهمر عليه مثل المطر المدرار ، فتصيبه بمزيد من الرضوض والاوجاع . ولكن الغرب في الامر ، انه لم يكن ينوي أن يفادر مكانه . هناك تحت اخشاب القاعدة ! ومن يدري؟ ربما خيل له انه هناك تحت سقف

سفينته وبيته . وعلى الرغم من كل شيء ، فقد أثقل به الأولاد من صنوف العذاب ما جعلنى أتساءل كيف انه لم يلق بعد حتفه على أيديهم .

ذات يوم ، بعد أن لطفته كثيرا ، عقدت منديلا حول عنقه ، وأردت أن أخذه معى الى بيتى الذى كان على مقربة من الشاطئ .
بمعنى ، بلا ممانعة ، وهو بهز ذيله .
وعندما وصلت الى البيت فضضت المنديل من حول عنقه ، وربت على جسده كثيرا .

نظرت الى بعينى كلب مخلص نظرات مفعمة بالود والعرفان بالجميل .
عينان ، وأن كانتا بعينى حيوان الا انه قد ارتسم فيهما كل ذلك الأسى العميق الذى يمزق روحه ، وبعد أن لعق يدي ابتعد منصرفا بخطوات ثقيلة . وما لبث بعد هنيهة أن أدار رأسه ، والتفت نحوى هازا ذيله ، وعاد ينظر الى من جديد بعينيه المتألمتين ، ثم غاب مبتعدا .

أحسست بأحاسيس ذلك التمس . لم يكن يريدنى أن أسوء فهمه . كان فيه عاجزا عن الكلام ، ولكن تلك النظرة الشجنية بدت كما لو كانت تقول لى : « لا تعتقد انى ناكز للجميل ، لكننى أريد أن ألفت أنفاسى الأخيرة هناك تحت أخشاب القاعدة حيث يبدو لى المكان شديد الشبه بسفينتى . هناك ، أريد أن ألفت أنفاسى متطلعا الى عرض البحر ، مستنشفا رائحة الملح التى تأتى بها الريح » .

ولكن كم كانت هذه الريح تزيد من آلامه !
هناك ، تحت ذلك الركام العطن الذى اختبأ فيه ، عندما كان البحر منخفضا والماء جزرا ، كان يتاح للمسكين شبران من اليابسة يقع عليهما منكشبا على نفسه ، راقدا بين الطحالب المبلة . ولكن عندما تهب الريح ، ينتفخ البحر وتغمر ميساهه ركامات الطحالب كلها ، وتغطي الكلب واقفا حتى بطنه .

ولكنه لم يكن يتوخرح عن مكانه هناك . فقط عندما كان يسمع صليل سلاسل مركب يلقى بمرساته ، كان يتهاقز ، ويخرج من فجوة الظلمة ، يتفحص البحر بنظراته ويتشمم الهواء . وعندما يقترب من الشاطئ قارب يجرحر نفسه الى هناك هازا ذيله للحجارة لكنهم كانوا يرحمونه بالحجارة ، لأن سمات السمار كلها اجتمعت فيه ، فى هذا الكلب القدر اللعين . كانت عيناه الفأثرتان تلمعان ،

وكان يدس ذيله بين فخذيه على الدوام .
وفي النهاية ، قرر اصحاب الدكاكين على الشاطئ ان يربطوا في
عنقه حجرا ، ويفرقوه من أعلى سلم الميناء الخشبي ، لانه كان يعوى
كثيرا بالليل ، فيثير جوا من النحس يدعو الموت الى اختطاف الأرواح .
وقد عانيت كثيرا ، وتوسلت اليهم ان يغيروا من رأيهم هذا .
مضيت اقول لهم انه انما يبكي من شدة الحزن ، ولكن ما من
أحد كان يريد ان يستمع الي . اما الذي جعلهم يسهلون ويعدلون
هما كانوا يزعمون فهو ما اخبرتهم به من انني أعرف من هذا
الكلب انه لا يقرب طعاما ، وانه خلال يومين ، على الأكثر ،
سينفق وحده .

جاءتنا بالأسى سفينة صيد ذات اشرعة بيضاء ، وعند الفجر ،
في الثالثة بعد منتصف الليل تقريبا ، كنت في قاربها التي الشباك،
كي أرفعها عند طلوع النهار .

كنا قد اوفلنا الى عرض البحر كثيرا . وعلى الرغم من ذلك ،
بينما كنت أرمي الشبكة ، تناهى الى سمعي مع هبات الهواء الوافدة
في تلك الساعة من اليابسة عواء الكلب واهنا بلفظ أنفاسه .
وبعد قليل ، على الرغم من ان الموج قد دفع بنا على مقربة
شديدة من الساحل ، ما عدت أسمع صوته . كان ذلك وقت ان
برفت من وراء جبال ذيسفيناس نجمة الصباح .

لم اعد افكر في الكلب ، وانهمكت في الصبيد حتى طلعت
الشمس . اخرجنا شباكنا كلها في النهاية ، وبمنا صوب
الشاطئ عائدين .

هناك على الرمال ، عند حافة الماء ، كان يرقد الكلب ، بالهيئة
التي يرسمون عليها أبا الهول ، ساقاه الاماميتان ممدودتان ، ورقبته
مثنوبة ، وعيناه مصوبتان الى عرض البحر تحدقان بعيدا .

لكنه كان ميتا ، كانت عيناه المحملتان منطقتين زجاجيتين ،
وكان جسده متخشا .

وعندئذ قال الصبي البحار الذي يمسك بمجاديف قاربي :
- يا ، انه الأعرج ، يا للكلب المسكين ! قالوا كلمتهم ، ونفدوا
ما قالوه ، أولئك الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة ...

هذه الكلمات المفعمة بالأسى على الحيوان المسكين شدتني الى
البحار الصغير ، وجعلتني أحس بالتعاطف معه ، فقلت له :
- أعرف ، يا بني ، هذا السكيب !

- وكيف لا أعرفه ؟ انه الأمرج ، كلب سفينة من جزيرتى .
 سفينة نيكولوستاميا . قالوا انهم سيطرذونه وقد فعلوا .
 - ولماذا طردوه ، يا بنى ؟
 - لم يكن شريرا على الإطلاق ، مهما فعلوا به . ضربوه ، شدوا
 وثاقه بالسلاسل كي يشيروا ضارته ، ولكن دون جدوى ! كلاب
 السفن ، كما تعرف ياسيدى ، يجب ان تكون شرسة ، متوحشة ،
 يجب ان تلعو اصواتها بالنباح ، وتكشر عن أنيابها . أما هذا
 الكلب ، فقد ولد وديما طيبا . كان يهز ذيله لكل من تطل قدمه
 السفينة . لم يكن يعتبر أحدا لصا ، لم يكن يتوجس فى انسان
 شرا
 حقا ، كم كنت مخفئا ان اظن الى تلك اللحظة ان الانسان وحده
 تقضى عليه طبيئته !

دروب وعرة

ستراتيس تسيركاس



دروب وعرة

دفعة في اثر دفعة ، تركته يأخذ منى ما يقرب من مائة جنيه ، على امل ان يقرر الزواج بى . كم شقيت وامتهنت حتى أجمع تلك الجنيهاات الثلاثمائة النعسة ، بائنتى التى ليس لى غيرها . ابتها الداعرة ، بهذا النعت ، فى غدوى ودواحى ، كان يسبنى المصارف والأغراب .

لكن ذلك اليوم اللعين من أيام الأحاد ، كنت على استعداد ان أعطيه كل ما يطلب . مضى عليه أسبوع ولم يحضر ، وقد تعودت ان أراه يوما بعد يوم ، أو على الأكثر كل يومين ، فكنت على أحر من جمر ، انهش نفسي . قلت : « الهى ، قليات بزهة فحسب ، يشرب قدحا من القهوة ، ولا يعنينى ان يرد الى الجنيهاات المائة ، بل سوف أعطيه غيرها . خلال عليه ! » كنت قد الفتته كثيرا . أحبيته .

كلما سمعت المصعد يصعد ، ينتابنى شعور غريب . تتقطع انفاسى ، وتهن ساقاى ، كما لو كانتا من القماش قد صنمنا . ساقاى الاثنان ، السليمة والمريضة على السواء . انهض ، واذهب الى الباب . لكن لم يكن ثمة أحد آت إلينا . المصعد يقف فى طابق آخر ، فأعود وأجلس مع فولا فى غرفة الاستقبال الصغيرة . لما يكن لدينا فسائين نحيكها ، ولم تكن ننظر زوارا . خرجت الفتيات مع أصحابهن ، ينعمن بيوم الأحد . وكان الجو مشمساً ، وبهيجا . كنا فى يناير ، ويخيل لك اننا فى الصيف .

ظلت أنا وفولا ، مثل اليوم ، محبوستين فى العتمة . راحت تقول لى ما الفت ان تردده على الدوام ، حكايات عن أرواح ، وجرائم قتل ، وأمراض ، وأخفاقات ، وسحر ، ومن وقت لآخر ، تزج بالقديس فانورى فى حديثها .. روحى تنقبض .. هذه المرأة تملأنى تعاسة . لا اذكر قط أنها خلعت ثيابها السوداء ، التى تفوح منها رائحة الجثث « اسكتى ، اسكتى ، من فضلك ! انزلى القدر من النار ، وقدمى لنا ناكل » .

انتظرناه طويلا . على المائدة خيم علينا الصمت . كنا نودد الطعام

بصعوبة . بين الحين والحين ، ترفع فولا عن صحنها عينيها المصابتين بالحول ، وتنظر الى . كانت تتحين فرصة اسمح لها فيها ان تماود حديثها المكرور من جديد .
قلت انه سوف ياتى ساعة تناول القهوة . اعتاد ذلك . ولكن حتى آنذاك لم يظهر .

في الثالثة اتخذت قرارى . قلت : « فولا ، ارمى البيت . انى ذاهبة سوف اظهر باننى امر امام البيت . ربما كان مريضا ولا نعرف نحن ذلك . على أسوأ الأحوال ، لنقل اننى قمت بنزهة في هذا الجو المشمس ... » قالت لى : « كما تشائين . احلىرى فحسب ان تلتقى بـزوجة اخيه ، لانها سليطة اللسان . انه يقطر سما . اخبرتك بما كانت تقوله منذ أيام لستيليانا بشأنك » .
قاطعتها قائلة : « اعرف ، اعرف ! » ونهضت اغمر ملابسى .
انكمشت فولا في ثيابها السوداء ، وتمتمت بشيء ، عن فطيرة القديس فانورى التى ما دامت قد خبزت ، فانها سرعان ماستحقيق ماذرت من اجله .

كان يقيم مع اهله بعيدا ، على مشارف المدينة ، في حى فقير ، يكتظ ببيوت واطنة وتتناثر فيه الحقول . في الترام كنت قلقة خشية ان اتوه في الأتربة ولا امثر على بيته . شرحت لى فولا ماذا افعل كي اتفادى طريقا اطول . قالت لى : « الأمر سهل » قلت لها : « يبدو الأمر سهلا لك انت . اما انا التى تختلط على الشوارع ، وبساقى هذه ... فالدروب وعرة .. »

كان هذا الأمر يشغلنى ، فلم اكن ارى الشمس السبباطمة بالخارج . ثم انصرف ذهنى الى امر آخر . ماذا لو كان مريضا حقا ؟ مريضا للغاية ؟ كيف سوف اتبين ذلك ؟ ربما ستكون امة في الشرفة ، وترانى امر ، فتنادبنى . في لحظات مثل هذه تحدث أمور كهذه . ربما تشفق على وتدعونى للدخول ، وذلك - ان شئنا القول - كى تدخل البهجة الى قلب ابنها .

كنت ابتسم وحدى . ولكن كيف انسى ما قالته زوجة اخيه لستيليانا ؟ ذهبت زوجة الأخ اليها ، تلثم حماتها : « اتعتقدين انها طيبة ؟ انت واهمة ! انها عجوز داهية وقانا الله شرها . الم اخبرك ماذا قالت عن صاحبة فولا ؟ قالت افضل ان اراه لصا قاتلا ، معلقا في المشتقة على ان اتركه يتزوج هذه المراجعة الماهرة . اذ كان يلهو معها ، ويضمن مصروفا لجيبه ، ايه ، فانى

اتظاهر باننى لا افهم . اما اذا تعلق الامر بالزواج ... ههنا
ما اخبرتنى به فولا تقلا عن ستيليانا . على اننى كنت اهود فاقول
لنفسى ربما لم تقل ذلك ، ولا حتى دار بخلد المعجوز ، ولكن تشيحه
زوجة ابنها ، فهى تعرف ان هذه الاقوال ستصل الى سمعى ، وهى
تعادبنى . كما لو كنت قد ارتكبت فى حقها جرما . وانى لى
معرفتها ، هذه القدرة ؟

وهكذا تارة ابتسم وتارة يخيم على الوجوم ، حتى وصلت الى
التبى ايليا دون ان اتبين ذلك . صعدت الدرجات وأوقدت شمعة
كبيرة من فئة الخمسة قروش . امام ايقونة القديس استيفان .
راجية ان يكون مريضا حقا . قبلت امتساب النوى وخرجت .
اجتزت الفناء ، كما قالت لى فولا ، ووجدت الباب الخلفى مواربا .
ولكن ما ان وطأت قدمى ارض ذلك الدرب حتى انتابتنى
رعشة ، كما لو كان ثمة ما يندلر بالسوء . جلدى الذى كان قد
اتقد فى الشمس صار الآن جمدا . على الجانبين حوائط ، ومن
وراء اسوار البساتين تميل اشجار ، تطل على الشارع . تتلوى
افصاتها المعقدة مثل خصلات مغزولة على هيئة قناطر خضراء
وكيوف قاتمة . عصافير صغيرة كانت تملأ الجو بقرقرتها . ثم
ترفرف اجنحتها فجأة ، وتظهر معا مبتعدة . كان الشارع الطويل
تقطعه من وقت لآخر ازقة تصب فيه مثل أسطة من أضواء معتمة .
اخذت أسير . من يسارى ، خلف سور احد البساتين نبح فى
كلب . احسنت بساقى تميدان من تحتى . كنت أخاف الكلاب
دائما .

لم اتوقف . وعندما اقتربت من الرقاق الثالث الى اليمين لمحت
البيت ذا السقف المهدم عند الناصية . خفق قلبى بشدة حتى خلته
سيحطهم ، ومن ورائى كان الكلب ينبع .
تظاهرت بانى امر من هناك غير مكتثرة . فى الشرفة وقفت امه
المعجوز . كانت ترتدى منديلا جديدا ، ولكن احدى عدسيتى
نظارتها كانت مشروخة . ومن وراء الزجاج اتسعت عينها
واكتست ضراوة . بدت كما لو كانت ترقبنى وتتجسس على .
قلت لنفسى : « لو تزوجنى ، ساشترى لها نظارة جديدة فضية
الاطار ، ولها جراب » .

هتفت المعجوز منادية « فانجيليو ! » كانت فانجيليو ابتها .
ترملت واقامت بدورها هناك مع اطفالها . قالت ستيليانا لفولا انها

لم تكن على وفاق مع الأرملة الأخرى ، زوجة أخيها سليطة اللسان .
وفي البيت أيضا يعيش يورغيس شقيقهم الأكبر ، النجار . ذات يوم
كانت هذه الأسرة من الأسر الكبيرة . ولكن الموت نزل بمنجمله وحصد
وغرق الأزواج . وكم يحل الخراب بالأسر عندما يحط مرض السل
على رجالها !

لم أكن أعرف ماذا أفعل . هل أقف ، وأقول : « مساء الخير .
ما رأيك في هذا الجو ؟ » كي أظهار بأنني أبحث عن بيت بعض
الناس ... كنت أعرفهن ، وهن يعرفنني ، لكن كلا مننا كانت
تتظاهر بأنها لا تعرف الأخرى .

جيتت ، ومضيت في سبيري . سمعت شبابا يفتح . كانت
فانجيليو ؟

صاح صوت ينادي : « ستيفان ! » كما لو كانت النار اشتعلت
بالبيت ، أو أن اللهب فار في أنائه على الموقد . دارت رأسي .
أحسست قلبي ينخلع ، ويسقط متدحرجا من مكانه . تعثرت
خطوتي . ماذا يجري ؟ هل سيخرج هو الآن ، ويطل من الشباك ؟
أجابها أحد الصبية ضجرا : « ماذا تريدن ؟ » كان ابن الأخت ،
ابن فانجيليو ، وكان اسمه ستيفان أيضا . لم استدر لأراه . كانت
ساقى المريضة تحرف على الأرض وتثير ترابا . خيل لي أنني
أسمع ضحكا ورائي .

إلى يساري ، زقاق أعرفه ، يقود إلى ساحة أقيمت عليها
عمارات . بسطح أحدها تقيم كولا ، صديقة قديمة . لكنني لم
استدر لأدخل هذا الزقاق ، قلت لنفسى فلأمض إلى نهاية الشارع
وأعود على مهل ، كي ألقى نظرة أخرى .

على مبعدة من هناك ، كانت فيلا عصرية ذات سور من قضبان
حديدية . ليس بحديقتها أشجار . أرض خضراء فحسب . وقليل
من شجر الورد ، وأرائك ، ومنضدة صغيرة وضع عليه طقم للشاي .
وبا للغرابية ، من أرى جالسا هناك ؟ السيد ديمترائي ، أحد
زبائني . كان يتردد علينا . فقد كانت له عشيقة من الشغالات عندي
بنت سمراء نحيلة ، شديدة الدلال كثيرة التزوات . أما الآن ، فهو
يجلس ، وقد فتح صدرته ، مستغرقا في القراءة . زوجته امرأة
مهندمة ، لا تزيد على الخامسة والثلاثين من عمرها ، بيضاء الذراعين
كانت دائبة الحركة ، تعد الشاي . سوف يقول من لا يعرف الحقيقة
يالهما من زوجين متآلفين ... تذكرت يوم أن أغنى عليه ، فدلكتاه

بالسكولونيا ، تذكرت حمالة سرواله وبنظنه المتبعجة . وقد انشدنا
نقنى ساخرين منه :

« ياديمتراكى ، ياديمتراكى ، لا تناسيك السمعة ، ايها البدين .. »
لحنى . طوى صحيفته ، ونهض يرمقنى فافرا فاه كما لو كان
قد رأى الشيطان أمامه . مضيت فى سبيلى . ووصلت الى آخر
الشارع وقفلت راجعة . بخطوات بطيئة حتى لا أهرق ساقى .
مررت من جديد أمام الفيلا . جلس الزوجان الآن يشربان الشاي .
عندما رأتى أرتبك من جديد .

سمعته يسأل زوجته : « من هذه ؟ » كما لو كان يقول لى :
« لا تأتى إلينا . ترين اننى اظاهر باننى لا أفرقك » . أما أنا ،
فما كان حتى خطر ببالي شيء من هذا القبيل . أكان سيعلمنى
مهنتى ؟ لكنى وددت أن ألقنه درسا على ما بدا منه حينما رأتى
قلت لنفسى : « دعك منه الآن . سيأتى دوره يوما » .

وصلت الى البيت ذى السقف المهدم . رأت ستيفان الصغير
متكبا على دراجة استندعا الى الأرض . أخذت أحتف إليه فى قرارة
نفسى متوسلة : « أين خالك ، أين خالك ، يا حبيبى ! » .

كانت الشرفة خالية ، والنوافذ مغلقة . أكان يرقبنى من وراءها
أحد ؟

تعالى مرة أخرى صوت بنادى : « ستيفان » ودب الرعب فى
أوصالى من جديد . سررت فاقدة الوعى ، مثل مخمور ، حتى
الكنيسة . ولكن بدلا من أن أفتح الباب الخلفى وأرحل ، عدت
الى الشارع ذاته ، بخطوات عرجاء . ثمة ما يجذبنى . كنت أتوق
حتى الموت أن أراه ، أن أعرف أحواله .

كان الصغير صاحب الدراجة قد انصرف . لم تكن ثمة بادرة على
وجود انسان . شباك واحد ظل مفتوحا ، ومنه بدا سرير حديدى
بغطيه دثار ناعل ، ومراة صدئة ذات اطار خشبى مذهب شديد
القدم . ولكن مرة أخرى انطلق فجأة صوت يقول : « ستيفان !
اطرد الشحاذة التى تجلس بالخارج ! »

كانت زوجة الأخ ، سليطة اللسان . آه ، كم اثر فى ذلك تأثيرا
سيئا . خطر لى أن أقف . افتح فى وأصبح : « أينها القلدة ،
أينها القلدرات » أقول : « أنا شحاذة أم أنتن اللاتى تنتظرن لقمتمكن
من رجل واحد ؟ » . وكنت سوف أمضى فأقول من جنبهاى المائة
التي سلبها منى . كنت سأقول : « اذا كانت حماك تلبس مندبلا

جديدا وانت حذاء جديدا ، وفانجيليو خفا من الجوخ ويورغي العامل
الفاشل ربطة عنق حريري ، فانت مدينون بكل هذه النقود لي انا ،
جاء الى عشية عيد القديس فاسيليو وطلبها مني .
هممت ان اتكلم ، لكنني تمالكنت نفسي وتركت غضبي يتبدد .
واصلت سري ، لاني لو كنت تكلمت لتكالبن كلهن ضدي ، وكان
السر جيئة وذهابا قد اضراني واوهن قواي . تلهفت ان اعود الى
بيتي ، آه الى بيتي اعود واستريح . ولكن ماذا افعل ، وقد كنت
سوف اصطدم بديمتراسكي ، لو مضيت الى الامام خطوة ، اردت ان
اجلس في مكان ما هنيئة ، واشرب قدحا من الماء .
يسمت شطري الى كولا . اعرف ان زيارتي لن تروق لها . كانت
قد وفقت الى الزواج من سائق قبرصي . ورزقت طفلا ، بل وهي
الآن في انتظار طفلها الثاني . سمعت المسكينة ان تقطع صلتها ،
تقطع صلتها تماما ، بحياتها السابقة كلها . ولكن ماذا يوسمي ان
افعل انا ايضا ؟ ساطلب منها كوبا من الماء فحسب ، واجلس
قليلا استرد انفاسي من عناء السلم وانصرف الى حال سبيلي .
الطوابق اربعة ، ثم السطح . السلم مظلم ضيق ، درجات شاقة ،
وعالية جدا . ظننت اني لن اقوى عليها . وعندما صعدت ووصلت
الى السطح ، كانت بانتظاري فاجعة اخرى . لم يكن احد بالبيت .
استندت الى الحاجز وبكيت مليا . احسنت كاني تخففت من
همي . رفعت رأسي . رأيت الشمس والبحر من بعيد قد غسلهما
المطر ثم نظرت الى الساحة حيث سمعت اصواتنا تحت . بعض
الاولاد يلعبون الكرة بينهم ولد هزيل احمر الشعر ، بساق كسيحة
وعكازين لم يشركوه في اللعب ، وتركوه يجري يحضر لهم الكرة متى
قذف بها بعيدا ، حتى لا يكلفوا انفسهم مشقة احضارها . كان المسكين
يجري ، يطوح ذراعه الحرة ، ويطوح ساقه الكسيحة ، فاذا ما لحق
بالكرة راح يركلها برجله السليمة ويدفعها بمكازه ، ويضحك وهو
يلتقطها بيده ويقدمها اليهم . كان ذلك الشيء الصغير يملاء فرحا
ينظر اليهم . وعندما يتبين انه قد تاخر في احضار الكرة ينحنى
غامرا .
ذلك الصبي اعاد المسكينة الى قلبي . قلت : « سوف امر من
جديد ، للمرة الأخيرة . قد يخرج للقائي والا فاني سامضي في سبيلي
الى بوابة النبي ايليا . ومن هناك الى البيت » .

قوتل بمزم جديد . بل كنت أقول لنفسى ربما لم أكن قد افترطت في المرور أمام بيته . إذا كانت العجوز لم تتعرف على في المرة الأولى فقد راوتى مرتين فحسب . أهذا كثير ؟ ألا يحدث للمرأة أن يمر بذات الشارع مرتين وثلاث مرات ؟ ثلاث مرات عدد كبير ، لكن مرتى الثالثة سوف تكون الأخيرة . سوف أنصرف ، وعندئذ فليقلن ماشئن . بعد ذلك أخذت أقلب قول زوجة الأخ عن الشحاذة . أذكر أنها لم تقل « التى تمر » أو « التى تحوم » بل قالت : « التى تجلس » وأنا لم أكن جالسة ، كنت مارة . ربما كان ثمة باب آخر بالخلف تجلس عنده شحاذة ، من يدري ؟

كانت الشمس مائلة الى المغييب . كنت أقول لنفسى انه لو كان قد ذهب الى سباق الخيل ، فقد آن ميعاد أوبته . آه ، تبأ لهذا السباق ، كم يجلب من أحزان . ولكن مهلا ، سوف أجد وسيلة لأضعف عليه ، وأصرفه عنه .

دارت كل هذه الأفكار بخلدى الى ان وصلت الى الناصية التى يقع عندها بيتهم . كانت النوافذ مفتوحة ، دون أن يبدو أحد . فجأة سمعت صوت رجل ، وخفق قلبى . اقتربت دون أن أعي من السور ، وأمسكت بقضبانة الحديدية . لكنه لم يكن ستيفان ، بل يورغى العاطل . كان يطلق الشسبستائم ويقول : « كل يوم فاصوليا ، حتى يوم الأحد ، أيها الصغير ، احضر ، احضر الاوزو . هيا ، قلت لك بسرعة . اركب الدراجة ! »

هممت بالتراجع . ولكن وا مصيبتاه . ماذا ارى ؟ الجميع معا ، أمه ، وفانجيليو ، وزوجة اخيه ، والصغير ، خرجوا بفتة الى النوافذ والشرفة ، ومضوا ينظرون الى اخرج يورغى أيضا . يبدو ان الصغير كان يراقبنى .

أسقط في يدى . خطوات متراجمة ، لكن اختلطت على الامور ، وبدلا من أن أسير في الطريق الذى يؤدى الى النبى ايليا ، دخلت في الزقاق الآخر ، الى اليسار ولم أكن أعرف الى أين يقود . تظاهرت بعدم اكتراث من يعضى في طريقه غير مهتم بشئ . كان التراب طريا ، لم تكن قد وطأته الاقدام كثيرا من قبل . تعثرت مرة أو مرتين . اتانبنى دوار شديد لم أعرف ماذا كنت قد سمعت حقا ضحكات أم ان أذنى كانتا يدوى فيهما طنين . وهناك سمعت حشرة ورائى ، لم التفت ، لكننى حدسنت ان

ثمة ظلا يقع على . لويت رقبتي ، أحسنت بالتراب يملا انفي ،
ورأيت ستيفان الصغير راكبا دراجته يقف امامي وسط سحابة .
ثم خفف قبضته على الغرامل . ومضى يدور بالدراجة حولي .
كما يفعلون بالسرك .

انتابتنى لوثة . انتابتنى الرغبة ان اقتل الصبي الصلوك . كرزت
على أسناني ، ووسعت من خطواتي . ان ارحل ، ان ارحل ، من
هذا الشارع ، حتى لا يروني . لكن الصغير ، كان هناك ، يعاود معي
الحركة ذاتها ، مرة بعد أخرى . وكلما أمعن علت الضحكات .
فطاني التراب ، كانت أسناني تمضغ التراب الذي دخل فمي ،
وزال أحمر الشفاه من على شفتي ولطخ يدي . تصيب عرقى .
والتهبت عيناي . وساقى مضت ترحف على الأرض ، آه ، آه ،
كفى ! أردت ان أصرخ . وفي النهاية ، أخذت أجري .

لكن ، وا مصيبتاه . الآن ، تجيء الفضيحة الكبرى . عندما
رفعت رأسي برهة رأيت امامي حائطا ، وعن يساري حائطا ، وعن
يمينى حائطا . كان ذلك الشارع زقاقا مسدودا حقا ، دون مخرج
من أى جهة . . ولم اكن اعرف ! تلفت حولي على أجد بابا
أطرقه . ما من باب على الإطلاق . كنت كمن دفنت حية ، وعندئذ
لعمري الصباح الصغير الى عنان السماء .

كنت أريد ان تنسبىق الأرض وتبتلعنى في ذلك الركن ، وان
استسلم لأنين قلبي ، وأطلق العنان للدموعى ، وأقول لهم اذهبوا
عننى ، دهنونى ، لا أريد منكم شيئا ، لن اطلبكم بشيء . وددت
لو كنت مت .

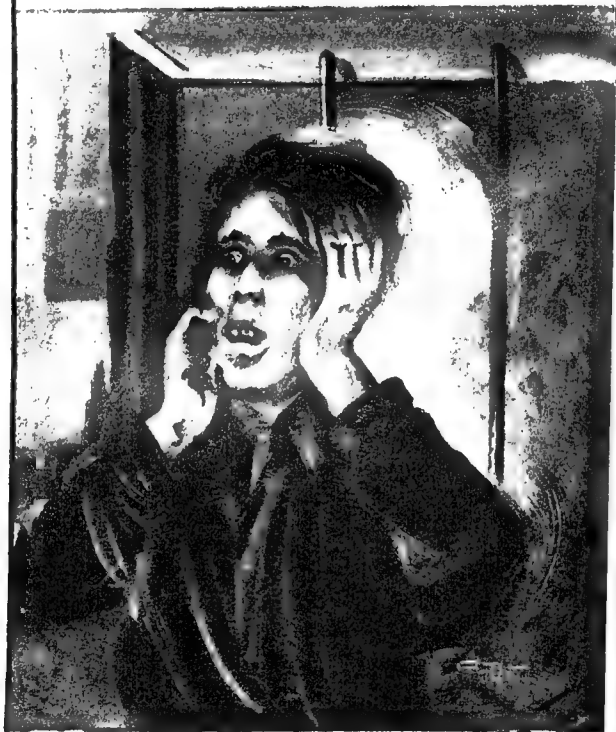
ومع ذلك ، تكسنت رأسي من جديد ، وعدت أدراجى ، مهيضة
الجناح ، تعلونى الأقدار ، بخطوات مرجاء ، ولم يكف الصغير عن
المجيء والذهاب ، واعتراض طريقي ، مزهوا بما يفعل . ولم ينقطع
الصغير والصياح والتصفيق من أنحاء الطريق . تجمع ايضا بعض
المارة والجيران . وقفوا يشاهدون بدورهم ما يجري ، ويضحكون
وما من انسان واحد وجد ليقول لهم عار عليكم ما تفعلون . اما أنا
فقد مررت من امامهم دون ان أنبس بكلمة . كنت أتمثر في خطاى
فحسب وامضى في مسرى .

كان ما انتابنى من امتهان ذلك اليوم لا يطاق ، وأحسنت بمرارة
لاتوصف . . .

وطوال الوقت الذي كنت اتملأ فيه هناك عند بيته ، كان هو
يجلس مع فولا في غرفة الاستقبال الصغيرة ، ينتظرنى . قال انه
جاء يطلب منى أن اقترضه خمسة جنيهات ، يدفع بها ديننا
عليه من ديون السباق .

الفيل

كوستاس فاليتاس



القليل

كنت في غرفتي ، عندما سمعت جلبة في الممشى . أبواب تفتح وتقفل . انفاس لاهثة وخطوات تركض على درجات السلم . ضلف توارب لتسترق النظر من خلفها عيون مضطربة . ثم صوت شيء على الأرض يهوى مصحوبا بانين وهيدات ، مثل طلقات مدفعية ، توأكب خطوات منزلة توج طوابق العمارة .

الصقت عيني بثقب الباب ، لكنني لم أميز شيئا . رأيت وهجا أخضر وظلالا . وضعت عيني الثانية محل الأولى ، فرأيت . كان يقترب بخطا راسخة واثقة غير مزعجة . ثم أظلم كل شيء . أحسست بالباب يضغط عليه بشدة ، ضغطة غير عادية . صارت تفصلني عنه كتلة الخشب الرقيقة .

(عندئذ فحسب أدركت الخطر الذي يواجهني ، وتبينت أنني واقع تحت تهديد سطوته المباشر) .

صادفته من قبل فيما حولى ، لكنني لم انصوّر أنه سيتألب على . اصدقكم القول لم يدر ذلك بخلدى قط . كما كانت الصحف باعلانها انه « لن تسمح بكذا وكذا » تصرف اذهاننا عن الامر ، وتخدر جماهير قرائها الكرام .

لم أتح له أن يأخذ على مأخذا ، واعتقدت أنني بمنأى من كل خطر ، وفوق مستوى الشبهات . وانه على أقل تقدير لن يجرؤ على مضايقتي . كان قد نما الى علمي بالطبع اخبار بعض زياراته لبيوت الآخرين وما شاب تلك الزيارات من بهيمية وعنف ، لكن ذلك لم يكن يعنيني في شيء . لا بد أن ثمة أمورا تشوبهم دعتهم الى زيارتهم ، اليس كذلك ؟ لا أحد يضابق غيره بلا سبب .

القيت بجسمي على الباب ، ورحت اصده عن الدخول . كان يجب أن أفعل شيئا ، أن أجِد شيئا . أن أقاوم . عندئذ فقدت هدوء أعصابي . كان من المستحيل الا يحدث ذلك . أن على أن أقدم على شيء ، مهما كان صغيرا .

(ارتخت خيوط أعصابي . أحسست بعضلاتي تلين . أضحت هجينا)

زابلنى قدر من تورى ، كما لو كنت قد استرددت توازنى .
احسست بعضا من عنفوانى يعود الى . دفعت بالمنضدة ووضعتها
خلف الباب . لكننى انهرت من جديد . انصهرت عظامى ، وماعدت
اشعر بها . ارتعشت يداى كما لو كنت مصابا بمرض ارتعاش
الأطراف .

اما هو فلم يكن فى عجلة من أمره . بركلة رائعة من احدى قدميه
الاماميتين حطم مقاومة الباب المدمم بالمنضدة . وبرفعة ازدرائية من
خرطومه - الذى لم تكن ، والحق يقال ، تنقصه الوسامة - نحي الحطام
جانبا ، ودخل بعدم اكتراث مملوكى . وقف امامى على مبعده قريبة .
راكما على قدمى رحت احدق فى عينيه مباشرة . بادلنى بدوره
النظرات . خيم علينا الصمت . لم ينشأ بيننا اى تجاذب او
تعاطف . لاحظت ان له عينين واسعتين مضيتتين ، تصدر عنهما
نظرات حكيمة ، ليس فيها من الغباء شئ . (كما قد يعتقد المرء
عند النظرة الاولى) .

ناعستان ضجرتان ، هذا حق . لكنه يعرف ذلك ، وكثيرون رأوا
عينيه ، وقد وصل الى الحد الذى لم يعد شئ يترك فيه انطبعا .
وما فى نظراتهما من قسوة وبهيمة مبرور . كان يعرف حيوى ، اى
عملة مزيفة انا ، وفى اى الأخطاء تردت .
(كل هذا كنت اقبله لو حدث لغيرى ، ولو كان من جيرانى .
ولكن هانا مهدد تهديدا مباشرا ، فى جسمى . ليس هولا أن يدخل
احد على هذا النحو الى حجرتك) .

لمدة عشر هوان قام نوع من التوازن بيننا ، ولم لانقول من التعاطف
ايضا . ربما كان وصف ذلك بالتعاطف مبالغا فيه . الاصح ان
نقول فهما تبادلان . فهم هو موقفى ، كما فهمت انا موقفه . وقد
كنت اتأهب لأن أقول له شيئا مثل : « لو كنت مكانك لفعلت
مثلك »

رأيت التحول الذى طرا على خواطره ، انطبع ذلك على حاجبيه
الضخمين ، وعلى جفنيه ، وعلى حديقته المرسومتين . تبينت فى عينيه
تجاهلا وازدراء ، ولحت استهجانا . كانت نظراته تبصق فى وجهى
الأحترام القليل جدا الذى كان قد افصح لى عنه اول الامر . عرفت
من ستكون ضحيته التالية . سبيدوسنى . سيمر من على ،
ويسحقنى بثقله الضخم . فيلصق جسدى الذى اضحى قطعة من
صجين لا قيمة له بجسده ، وينساق الى كيانه الجرم . وربما نمت

من جراء ذلك قليلا اذناه الكبيرتان اللتان تسمعان كل صوت ، ولا تقيب عنهما أى همسة . أو ربما ازداد خرطومه استطالة . ولكن من المضحك أن اشغل نفسى بالموضع الذى سامتص اليه من جسمه ، وأصبح جزءا من أنسجته .

أجل ، أجل ، الأمر واضح كالشمس . انه يريد أن يمتصنى ، أو يجعلنى مثله ، على صورته ونسخة طبق الأصل منه ... كلا ، كلا ، لم يكن يريد أن يقتلنى - ومنذ الذى يقتل فى عصرنا ؟ - كان يريد أن يستحوذ على وجودى ليهضمنى ويتمثلنى فى كيانه الجسدى .

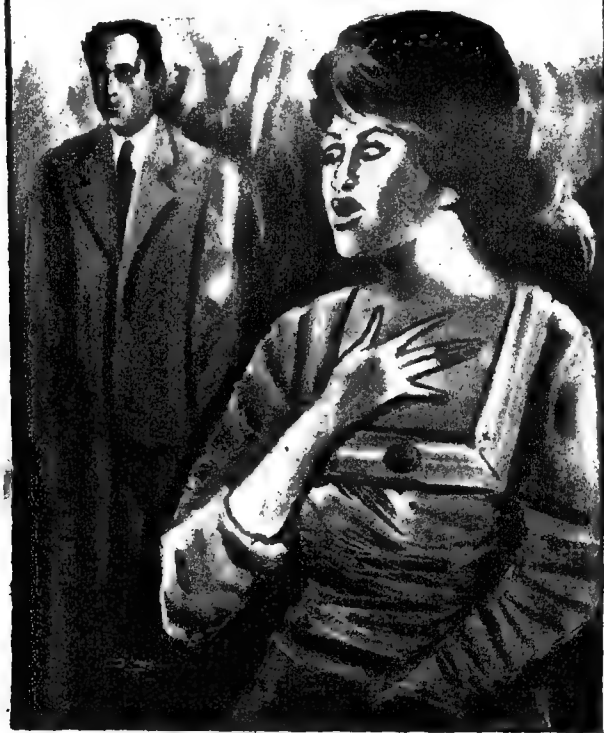
كنت لا زلت لاحظ خيالى البدنية . لا وجه للمقارنة بينى وبين قوته الطبيعية ، التى تتجاوز كل منافسة ، وأما عن اعتزازه بنفسه وثقته فيها فحدث . كيف يمكننى ، أنا المعتلىء بالمشاكل والشكوك والتمزقات والتعاسات الخاصة ، والصراعات المستمرة مع ذاتى . أنا اللوام دائب النقد ، الذى لا استقرار على حال ، وأراجع أرائى فى كل وقت كيف يمكننى أن أقارن نفسى به ؟ بهذا الذى توحد شاكرا وعميلا ، عزما وتنفيذا ، الذى يقول فلا يعصى له أمر ، الذى رجع عقله فسرى فى جسده كله وامتد الى أطراف أظافره (وإلى ناييه اللامعين أيضا) بهذا . الذى صار حتى خرطومه بالحكمة بتفلسف ؟

وعندئذ ، كما لو كنت أتلقى المون من جهاز رائع للطاقة الشمسية القيت على ظهر الدولاب بالآلة الكاتبة (التى أهدتنى إياها السنة الماضية ناسيكا بمرتبها الثالث عشر) وبقفزة انتحارية قفزت الى النفاذة .

خطا الفيل فى أرجاء الحجرة ، كأحد المعارف القدامى الذى يعرف خباياها ، وبجذبة واحدة القى الآلة الكاتبة أرضا وراح يدوس عليها بقدمه اليسرى حتى جعلها لوحا حديديا . مبطوطا . ثم فتح الدرج ، الذى كنت أخفى فيه مخطوطاتى عن الجمهور والنقاد . وحشا بها فمه ، لكنه لم يبتلعها ، وبعد ثلاث ثوان تقيأها كعصيدة ملكية ، تكورت على هيئة كرة قدم .

الزائر

كوستاس فاليتاس



الزائر

« كانت الجثة ليورغوس ذيماكيس المستخدم بالقطاع الخاص ، وقد اختفت من الجبانة في الثالثة بعد الظهر . كيف وجدت هنا ؟ »
« كنا نجلس حول المذبح ، ننتظر سماع الأخبار . كانت قد مضت ساعة على انتهاء الوقت المصرح بتجوال السيارات . سمعنا دقات على الباب . انزعجنا وخرجنا الى الممشى ، وفي التو رأينا شخصا مجهولاً ينظر إلينا من فتحة الباب . كيف دخل ؟ كيف فتح باب الطابق الأرضي المغلق ؟ »

أبعدت ملايسه المهندمة احتمال أن يكون قد تسلق الى السطح ، ثم نزل من السلم . عهدت الى زوجي وامي أمر استقباله . استأذنت اتأكد ما اذا كنت قد اوصدت باب الطابق الأرضي . كان موصداً . وكذلك زجاج باب السلم وباب الخدم أيضاً لم يمس بالشقة السفلى . صعدت ، ورايته جالسا بين المرآتين وقد وضع ساقا على ساق .

— ماذا تريد ؟

— لا شيء ؟

— لا شيء ؟ كيف ؟

— لا شيء يجعلكم تتضايقون .

— اذن ، لماذا جئت ؟

— اتساءل بدوري .

— معذرة . لكنني لا اعتقد اننا نعرفك .

— انتم لا تعرفونني . هذا صحيح . اما انا فاعرفكم جيدا .

قالت امي بصوت منطفيء :

— هل تناول قدحا من الشاي ؟

ابتسم ، ولم يجب . لكي يبدو ان السؤال الذي وجهته المرأة العجوز دون أن يلقي اجابة زاد من اضطرابنا حتى لم نعد بقادرين أن نمضي في السلبية والاستسلام .

كيف دخل هذا الغريب البيت ؟

من هو ؟

ماذا تعنى كلماته المريبة بأنه يعرفنا حق المعرفة ، وأنه لا يعرف
السبب من زيارته ؟
ماذا يد ؟

— ماذا تعنى ؟

انفجرت قائلاً :

— كى تاتى الى هنا . فلننته ، لماذا انت هنا ؟ ماذا تطلب ؟
لا تقل لى انك لا تعرف .

— ومع ذلك ، فهذه هى الحقيقة .

— لكن هذا غير معقول . تأمل الأمر قليلا . لا يعرف احدا
الاخر . التجول محظور . يطلقون النار على كل من يبرح بيته .
ومع ذلك فانت هنا بيننا ، غريب ، مجهول ، لم يدعك احد ،
اثرت الدعر فى اهل بيتى ، دون ان يكون لديك من الادب ما
يجعلك تشرح لنا مقاصدك . فى لحظة مشحونة بالأخطار وبالضحايا .
خفض صوته وقال :

— من فضلكم . لا تعملوا حسابا لى ، امضوا فى اموركم العادية .
كنا ننظر اليه مبهورى الأنفاس ، صامتين . كان كلامه جيد
مختلف ، عما ينتظر سماعه من شخص فى مكانه . ومع ذلك ، فقد
كنا نجد فى الظهور المريب للرجل الغريب بيننا منطقاً تحت كل هذه
الأوضاع غير المعقولة .

— بصرف النظر عن اننا لا نعرف كيف دخلت ...

— واثت ، ماذا تقول ؟

— لا اريد ان اكون قليل الادب ، لا اريد ان اوجه اليك اللوم ..

— ارجوك ، ارجوك ...

— ربما كان لك اسبابك الخاصة . لكن ماذا يمكننى ان اقول ؟
لا اعرف ماذا اقول . لايمكننى ان اقول شيئا . تتجاوز الأحداث
كل تفسير معقول أو مفهوم . من المستحيل ان اجد فيها جرعة
من المنطق ، أو قدرا من التماسك يقيم أودها . ولكن انت تفهم ،
فى لحظات مثل هذه يسودنا الرعب ، ضع نفسك فى مكاننا ، شخص
مجهول يدخل البيت بينما ابوابه موصدة ، بل واحكم ايسادها ،
والفتحة باب فى جيبي .

— حقا ؟ (قال ذلك ببراعة ، اقل ما توصف به انها مشيرة
لللفظ ، كما لو لم يكن هو ، بل شخص آخر ، من اوجد هذا
الوضع كله)

— من اين دخلت ؟

(سألته ، وقد استقر عزمى على مواجهة كل الاحتمالات) .

— كيف فتحت الباب ؟ اجب .

- يحزننى كل ذلك .
 - هل معك نسخة من المفسر ؟ هل تسألت الى السطح ؟
 وكيف ؟ لكن لو كنت قد فعلت ذلك لتهدئت ملابسك وعلق بها
 التراب . لا بد انك استخفمت سلما او جبلا على الأقل . الا اذا
 لم تكن وحيداً ، ولك أعوان .
 - اتى وحيداً .
 - ولكن بحق المسيح ، ماذا تطلب ؟ ماذا تريد ، ايها الرجل ؟
 لماذا كل هذا ؟ ما هدفك ؟ لا تعلمنا اكثر من ذلك . اشفق
 علينا . الا ترى الى اى حال اوصلتنا ؟
 - وددت لو استطيع .
 (قال الرجل المجهول هذا ، ثم تخرج على الأرض ، كما لو
 كان قد وقع في قبضة زلزال شديد) .
 القينا وسادة تحت رأسه . فكنا أزرار سترته وصدرته .
 رأينا جرحا عميقا مثل قرنفة متفتحة بحمرة الدم الذى جف يزين
 صدره . عظام مهشمة ، ومضلات متهترئة . وبقايا عروق واعصاب
 وشرابين بظلم من ضلله المكسور ، وعلى الرغم من ان مريض
 حاولت ان تجرى له تنفسا صناعيا فقد قربت المرأة من فمه .
 فبقى زجاجها نظيفا ، ولم تمتصها الأنفاس . غطيته بملء يضاء .
 وجلبناه الى منضدة غرفة الطعام . ورجنا ننظر اليه صامتين .
 شرعت المرأة المعجزة تقول :
 - اذن ...
 لم تكمل عبارتها ، فقد سمعنا عند الباب الخارجى جلبة مفرقة .
 ارتجت من شدتها اعمدة البيت ودعائمه .
 - افتحوا . سوف نحطم الباب .
 - هل تخشون احدا ؟
 - لا احبب .
 خرجت اليهم :
 - لازم البيت قبل ميعاد حظر التجول بساعتين .
 - هل تعرف من يدعى ديمائيس ؟ يورغيوس ديمائيس ؟
 - كلا .
 - اهو من اقاربك ؟
 - كلا ، على الاطلاق .
 - اذن ، لماذا سرقت جثته من المشرحة ؟

- أبة جثبة ؟
- أين تضعها ؟
- (وبخطوات واسعة اقترب المفتش من المنضدة . وازاح الملاة)
- من ههنا ؟
- لا نعرف !
- كيف وجد هنا ؟
- لم نستطع أن نعرف . شيء لا يمكن تفسيره .
- ههنا جثة يورغيوس ذيماكيس . اختفت من المشرحة في السادسة مساء . ألا تقدم تبريراً ؟
- (لم يتكلم أحد . وماذا كان لدينا لنقوله)
- كيف وجدت هنا ؟
- ألدك ما تريد أن تضيفه ؟ كيف وصلت الجثة الى بيتك ؟
- هل لديك ما تقوله ؟
- ليس لدى شيء على الإطلاق أقوله ، على الإطلاق .
- أعطنا يدك .
- (عندما لمس القيد الحديدى معصمى وسرت في برودته داخلنى احساس غريب بالسكينة والراحة) .

على ضفاف النيل
كيتي بابازاكي - كاراميتسا



على ضفاف النيل

وجدت منضدة متروية ، وجلست . الرواد قليلون في هذه الساعة المبكرة من الصباح باحدى المناضد فتي وفتاة يتحدثان بصوت خفيض غير مكترئين بما حولهما . . كان امام يكاد ينام على أحد الكراسي عندما رآها ، سوى طربوشه على رأسه ، وشد الحزام العريض الأحمر حول جليابه الحريري المخطط . اقترب ، ووقف امامها .

قالت له شـبـه باردة البال :

— فنجال من القهوة .

كان هذا المكان على ضفاف النيل يروق لها دائما . راحت تتابع قاربا يمر ببطء ، يشق به اللجة رجل لمعت حبات العرق على وجهه وعنقه . يلبس طاقية ، ويكاد يغمض عينيه من وهج الشمس . جسمه الرشيق الممتلئ يعيل تارة إلى الامام وتارة إلى الخلف ، كمن ينحنى يقبل مصبره مرة ، ويتراجع يتطلع إليه بكبرياء مرة أخرى . يجذب الجذابين ، يضرب بهما صفحة الماء في ابتسامات بطيئة ، ويتفنى بإحلامه المتنوع .

امامها ذهبية عاطلة عن السفر تنتظر الناس الذين يأتون إليها من وقت لآخر ، وتحسد البواخر النيلية التي تمر بجوارها بصغيرها الفرح مبحرة إلى الصعيد تحت سماوات تستحم بضياء القمر . اما هي فتبقى ملتصقة بالماء ، تمضي لياليها مظفاة الاوار . على مرمى البصر أشجار ، أشجار كثيرة ، تطل على النيل ، تشهد في مرآته جمالها . وتستلقي ظلّالها حبيبات مدلالات بين أحضانها .

وفي الأغوار جسر مثل قوس للنصر يمر من تحته اله جليل . ومن جامع قريب يتعالى الأذان فتشرف المويجات الخاضعات صوته . تناولت جرعة من القهوة ، وعادت يفكرها إلى الورد . تذكرت نظرتها التي سرحت بعيدا مع المياه . لم يقل لها قط كلمة تنير الطريق أمام خطواتها ، وتهدبها فتتسجم مع وقع خطواته . سمعت نفسها تقول له من جديد :

— يقولون اننى يجب أن أرحل . وانت ماذا تقول ؟

لم تتلق منه ردا . نظر الى اعماق عينيه . رأت جيئنه يظلم .
اشاح بنظرانه في ياس . كان الأمر بالنسبة له بعيدا ، جـد سابق
لأوانه . بداخلها ، أهابت به .

— أسرع . لم يبق وقت . آخرون يقررون مصيرى . اذا أردت
سوف اصمد . سأنتظر لو قلت لى انتظرينى ، وسوف انتظر مهما
طال الزمن .

فكرت . وراحت تقول لنفسها . كان يجب ان اخبره . أجل ،
كان يجب . ما دامت تعرف انها مختلفة عن الآخرين في
حياته ، وتجعله سعيدا الى حد يفوق التصديق ، وهى تحتضنه
بمواطفها الجياشة . هذا ما كان يقوله لها . أجل ، يجب ان تدود
عن حياتها . وتزداد تشبها بها . يجب ان تحيلها الى شيء ملموس ،
فلا تتخلى عن هذا الحب الذى أنبسط ، وأبان لها من وجهه
في كل الأرجاء . هذا الحب سرى في دمائها دافئا ، وتستشعره
الآن بأعماقها مثل جرثومة تمرضها ، وتترك على شفيتها طعم العلقم .
أجل كان يجب . أجل ، كان يجب ، ولكن خبرتها آنذاك كانت
قليلة اما خبرتها الآن ، فما عادت تعرف ماذا تفعل بها .
انصرف العاشقان . بحث الفتاة عن يده ، وامسكت بها .
صاحت في اعماقها بأسى :

— لا تتركه ، لا تتركه .

عادت تنظر الى حيث تجلى لها اليوم وجهه ، ممثلا بين السماء
ولجة المساء . رأت طائرا تسمر في الهواء محتفظا بتوازنه . وظل
مثل شهاب يرفرف في النور . ثم مضى يحيط على شجرة .
ارتعشت يدها على فنجان القهوة . تلمست بأصابعها دفاة ، لكنها
وجدته باردا .

الرجل الذي أراد أن يعود طفلاً

أندوني ساماراكي



الرجل الذى أراد أن يعود طفلا

ذات مساء فى يناير الماضى دخل صبيدلية ليلية واشترى حبة من الحبوب المسهلة ، فقد كان يعاني من أمساك مزمن فى السنوات الأخيرة . ثم ذهب لياخذ الأتوبيس الى بيته . وجد صفا طويلا من المنتظرين فى المحطة ظل ينتظر صابرا . وفى النهاية أمكنه الصعود . فى العربة وقف . كان قصيرا ، على قدر من البذانة ، ذا بطن تنبجح قليلا . وفى نوفمبر الماضى بلغ السابعة والأربعين .

بحواره كان ثمة من يضغط عليه . وبعد قليل نهضت سبيدة ونزلت ، فجلس هو مكانها . عندئذ وجد مجلة « عالم الأولاد » وهى مجلة من مجلات الأطفال . كانت أول مرة تقع عينيه فيها على هذه المجلة . لم يكن له شأن بمجلات الأطفال من قبل . أتت نظرة على الغلاف الملون . كان يصور راعيا من رعاة البقر يقفز بجواده الأبيض . وقد كتب تحت الصورة : تابعوا قصتنا الجديدة « مغامرة فى الغرب القصى » التى تبدأ فى هذا العدد . المجلة تصدر كل سبت ، كما هو مكتوب على الغلاف . وكان هذا عددها الأخير ، ولم تفض صفحاته بعد . لم يكن يدري ماذا يفعل به ، فليس له أولاد . أربعة عشر عاما مضت على زواجه ، والسبب عقم أصاب امرأته . وفى الديوان الذى يشغل به وظيفة صغيرة منذ ثمانى عشرة سنة ، كان موضع سخيرة زملائه لأنه لم يفلح فى أن ينجب أولادا .

تلقت عليه بجد طفلا يعطيه المجلة . ولكنه لم ير من حوله سوى كبار . فكر أن يعطيها لولد من أقربائه ، لأن بنت عمه ، وهو صبي عفرى فى الحادية عشرة من عمره ، يقطن فى جبرته . كانت ثمة رائحة عطنة فى الأتوبيس .

عندما وصل الى بيته ، دخل الى غرفته الصغيرة التى كان يتفرد بها ، الى جوار غرفة الأكل . بغرفته مكتب صغير ومكتبة وحاملان صفت على رفوفهما الكتب . لم يكن الطعام قد أعد بعد وكانت زوجته بالطبخ ، تطهو مكرونة باللحم المفروم . ذهب

الى غرفته الصغيرة حتى يجهز الطعام . كان قد ترك المجلة على أحد الأرفف . بسط صفحات جريدته . أحس وجعا بسبب آفة اليسرى . كان يعاني من الروماتيزم . سوف يطلب من زوجته أن تدلكه . عندما يصبح الجو رطباً ، أو يصعد سلماً ، تنتابه الآلام . مضى زهاء أسبوع على ذلك . الوقت ليل ، بعد العشاء لم تكن به رغبة في النوم . أغلق على نفسه باب غرفته ، وفتح مجلداً من مجلدات الموسوعة .

كانت زوجته قد أعدت له قدحا من القهوة . ثم مضى الى سريره وورقده .
قرأ عشر دقائق . انتابه الضجر . نهض ، طاف بأرجاء البيت ، أشعل سيجارة . وفي النهاية ، قرر أن يذهب لينام . وعندئذ لمح « عالم الأولاد » التي كان قد نسيها على الرف . فكر أن يقتل بعض الوقت .

كانت الساعة الحادية عشرة الا ثلثا تقريبا عندما أمسك بالمجلة . وكانت الساعة الواحدة والنصف عندما تركها .

أجهز عليها كلها . قرأ القصتين الطويلتين : « مغامرة في الغرب القصي » و « سنتان في الغابة » وهذه الأخيرة كانت تنشر في حلقات منذ أعداد سابقة . وقرأ القصص ، وحكاية « عروس الخريف » التي كانت موجهة الى أولاد أصغر سناً ، وصفحة « الذكاء » وفض الكلمات المتقاطعة ، وحل الفوازير ، وعثر على « الصورة الخفية » التي اقتضت منه بعض الجهد والوقت ، ركبته الإصرار ووفق الى الحل في النهاية . كانت الصورة أرنيسا صغيراً تبحث عنه أمه . وقرأ صفحة « أصدقاءنا الصغار يكتبون » التي تنشر قطعاً أدبية للقراء الصغار . كما قرأ صفحة « أصدقاءنا الصغار فيما بينهم » حيث يتراسل الأولاد تحت العديد من الأسماء المستعارة ويتبادلون شتى الدعابات . وفي النهاية ، وضع المجلة في درج من أدراج مكتبه وذهب لينام . استلقى الى جوار امرأته التي رقدت على ظهرها فافرة الفم .

حلم تلك الليلة حلمياً . رأى نفسه راعياً من رعاة البقر يمتطي جواده الأبيض ويجري في مرج من مروج الغرب القضي . وبينما هو ماض في قفزه هذا استدار على الجانب الآخر وسقط على زوجته دون أن يصحو من نومه . على أن المرأة استيقظت ، معتقدة أن زوجها قد اشتاق الى بعض المداميات التي كف عنها

مؤخرا . واذ رآته غارقا في سباته استدارت على الجنب الآخر ،
وعاودت نومها .

ثمة شيء حدث بداخله منذ تلك الليلة . أمرا تغير .
يوم السبت من كل اسبوع ، صار يشتري « عالم الأولاد »
وفي اللحظة التي يشتريها من الكشك يلقى نظرات متلصصة حوله ،
فقد كان بداخله احساس بأنه انما يفصل شيئا غير لائق . وفي
الليلة ذاتها بعد العشاء ، يفلق على نفسه غرفته الصغيرة ويقرا
المجلة . لم يصارح بالأمر أحدا . ومن في امكانه ان يحس به !

كان يفلق على الأعداد درجا من أدراج مكتبه .
ثمة شيء حدث في أعماقه . وهو يقرأ « عالم الأولاد » عثر من
جديد على عالم الأولاد . عالم جد مختلف عن عالم الكبار .

في الديوان كف عن تنكيس الرأس . من قبل ، عندما كان يرى
انحرافا أو خطأ لم يكن يفتح فمه بالكلام خوفا ، تعود على تقبل
كل شيء بلا احتجاج . أما الآن ، فقد أصبح مختلفا . بل وفي
ذات مرة دمهت الى مكتبها إحدى الشخصيات البارزة بالوزارة ،
أحدى الرياضيات الكبيرة ، ومضت تضغط عليه حتى يأتي تصرفا
في اختصاصه مخالفا للقانون ، أن يقيد طلبا بتاريخ سابق ، ولكنه
لم يرفض ذلك فحسب ، بل وخبط مكتب الرئيس بقبضته خبطة
شديدة حتى ان قدح القهوة دلق ولطخ بعض الأوراق . اسقط في
يد الرئيس ، لم يكن يتوقع ذلك قط .

لاحظت زوجته مائلا عليه من تغير . لاحظت انه يعتنى بنفسه .
اشترى ربطنى عنق جديدتين . تبدل حاله . قلقت . شكت في أن
تكون امرأة أخرى دخلت حياته . لكن ما لبث أن هبدا
بالحا وقد لمست رفته البالغة معها . اعتقدت ان حبه القديم لها
قد ازهر من جديد .

ومن ناحية أخرى ، فقد شفى من الامساك الذي كان يعاينه .
أرسل ذات مرة الى المجلة قطعة من الشعر المنشور كان قد كتبها
« تأملات في الخريف » هذا هو العنوان الذي أعطاه لمقطوعته .
وبعث بها الى صفحة « أصدقاؤنا الصغار يكتبون » احتاج بطبيعة
الحال أن يتخذ لنفسه اسما مستعارا . فكر في كثير من الأسماء ،
في النهاية اختار « الفارس الأشقر » كان اسمر اللون ، ومنذ صفره
وهو يحسد الشقر ، ويتمنى أن يكون أشقر .
نشرت المجلة لمقطوعته النثرية الشعرية . وكما كانت فرحته

كبيرة ! ثم نشرت له مقطوعة أخرى . وبعد ذلك رفضت له مقطوعة
ثالثة . وردت عليه المجلة بقولها : « أن الموضوع الذى اخترته
يا صديقنا الصغير أعلى من سنك . انتظر حتى تكبر قليلا وعاد من
جديد » .

هكذا كانت الأمور عندما قرأ - بعد شهرين ونصف تقريبا من
الليلة الأولى التى قضاها مع « عالم الأولاد » - قرأ فى الصد
الآخر من المجلة بصفحة « أصدقائنا الصغار فيما بينهم » الخبر
الآتى :

« اعتزمنا أن نقيم أمسية موسيقية أدبية . ولذلك فأننا نرجو
من أصحاب الأسماء الآتية من أصدقائنا المعروفين لدينا وغير
المعروفين أن يشرفونا بالحضور : كارمن ، ماريا ستيوارت ،
أغراسيللى ، ذو القناع الحديدى ، نابليون ، الفارس الحزين ،
الفارس الأشقر .. »

وتوالت أيضا بعض الأسماء المستعارة الأخرى . ثم اردفت الدعوة
تقول : « أننا فى انتظارهم جميعا ونهيب بهم ألا يتخلفوا عن الحضور ،
يوم الجمعة الثانى من إبريل الساعة السابعة مساء ، ١٤٥ شارع
النصر ، الدور الثانى .

بيرينيس - ملكة سبا - القرصان الأسود - بوسيدون - شيطان
الوج .

لأشك أن الأولاد سيحزنون عندما ينتظم عقدهم بغير « الفارس
الأشقر » . هذا ما فكر فيه ، ولكن لم يكن بالإمكان غير ذلك .
صاح فى السائق : « ١٤٥ شارع النصر . بأقصى سرعة فى مقدورك !
سأفقدك ضعف ما يسجله العداد » .

كاد يحدث تصادم مرتين بسبب السرعة ، لكن الأمر الوحيد
الذى كان يعنيه أن يصل إلى هناك بأقصر وقت . تأخر . كانت
الساعة السابعة وعشرين دقيقة ، والدعوة قد حدد لها السابعة .
كيف انصرف عن الديوان كيف ترك كل شيء ، الأوراق والمجبرة
والريشة وأدرج مكتبه مفتوحة ، كل شيء على حاله . ونزل بفز
السلم درجتين درجتين ! قابله رئيس المستخدمين لحظة انصرافه .
قال له ما معناه أنه يأخذه لمغادرته مكتبه على هذا النحو دون إذن ،
فلم يعره التفاتا .

كأنت قد أمسكت به قبضة جيبارة ، قبضة جيبارة للفاية ،
استولت عليه قوة انفتحت بداخله فجأة بينما كان هناك فى مكتبه ،

المؤلفون

- ٧ ... مقدمة بقلم المترجم ...
- ١١ ... النورس تأليف ايليا فينيزي ...
- ٢١ ... المغنى تأليف يوانيس بانايوتوبولوس ...
- ٢٥ ... صورة فتاة تأليف يوانيس بانايوتوبولوس ...
- ٣٣ ... البحر تأليف الكيفياديس يانوبولوس ...
- ٤١ ... تسوية ودية تأليف ديمتري سياتوبولوس ...
- ٤٩ ... جزيرة يونانية تأليف غالاثيا سرائدى ...
- ٦٣ ... حلم فتاة تأليف كوستاس خادزوبولوس ...
- ٦٩ ... انوار في افوار المحيط تأليف بيتروس خاريس ...
- ٧٧ ... عندما يهبط الليل تأليف بيتروس خاريس ...
- ٨٩ ... رسالة من غريق تأليف فاسيلي روتاس ...
- ٩٥ ... امرأة على الهامش تأليف صوفيا مافرويدى باباذاكى ...
- ١٠١ ... بستان البرتقال تأليف فيليبو بيريدى ...
- ١٠٧ ... المرأة ذات العينين البريشتين تأليف ميخائيل كانيليس ...
- ١٢٥ ... الاحزان تأليف ايمانويل ليكوذيس ...
- ١٣١ ... دروب وعرة تأليف ستراتيس تسيركاس ...
- ١٤١ ... الفيل تأليف كوستاس فاليتاس ...
- ١٤٥ ... الزائر تأليف كوستاس فاليتاس ...
- ١٥١ ... على ضفاف النيل تأليف كيتى باباذاكى - كاراميتسا ...
- ١٥٥ ... الرجل الذى اراد ان يكون طفلا تأليف اندوني ساماراكي ...

اشترك في روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

السيف / هاشم علي نحاس
جدة - ص . ب رقم ٤٩٣
المملكة العربية السعودية
جدة :

M. Miguel Maccul Cury,
B. 25 de Maroc, 990
Caixa Postal 7406.
Sao Paulo, BRASIL.
البرازيل :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND.
انجلترا :

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

هذه الرواية

مجموعة من القصص المصرية تقدم الى القارئ متعة ذهنية
وبهجة روحية وبدون حذلقه راح قصاصو هذه المجموعة
يحكون عن الحياة في بلادهم ، ويحكون ايضا عن الانسان في كل
الأوطان ، بافراحه والامه واحلامه .

انها باقة من القصص تبين كيف يرقى الكاتب المحلى الى العالمية
الرحيبة بدفء موضوعاته والابحان الذى يشيعه فى كلماته .



301
8
58



0705939

١٥ قرش